روايات عبير

مارجري لوتي

الماس إذا التهب!

٢٣

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 23

الماس إذا التهب!

بين الطموح والحلم علاقة خفية، كذلك بين القدر والحظ وفي هذه الرواية يلعب الطموح لعبة الوصول الى الحلم والقدر يهيء حظا سعيدا ، لكن لمن ؟

لتوني الفتاة الكادحة التي سرعان ما ترى نفسها وسط عالم الألماس والمجوهرات ، أم لأمها التي نذرت حياتها لرجل فنان لم يأبه للدنيا ولم يترك من سقط المتاع سوى لوحات مخبأة في كوخ ريفي ؟

أم لغاري الذي فقد زوجة لم يكن يحبها فعاد والتقى توني التي تشبهها الى حد بعيد أصابه بالتراجع والدهشة .. .

بين دفتي هذه الرواية أقصى مايمكن أن يصل اليه الطموح وأبعد مايصبو اليه الحلم . لكن ليس الامر كله بهذه السهولة...

١ ـ مقابلة أم شجار ؟

ألقت الآنسة بلاك عبر مكتبها نظرة على توني . وقالت:

«ستكون وظيفة ممتازة، فشركة واريتز من أشهر شركات المجوهرات، وعندما تذهبين للمقابلة غداً ستكون هناك أخريات من طالبات الوظيفة، وكذلك فإن الرجل الذي سيجري لك المقابلة ليس من السهل ارضاؤه، ومع ذلك فليس ما يمنع أن تجربي حظك... مازلت حديثة السن حقاً ولكنك قادرة على شغل هذه الوظيفة، وإلاّ لما رشحتك لها... لقد عملت سنتين في وظائف مؤقتة وتقاريرك جيدة. وحان الوقت لتشغلي عملاً دائماً، خاصة وأنت تقولين أن والدتك...»

وحدقت توني في المرأة الأكبر سناً، وقد أحست بشيء من المفاجأة، فلم تكن تعتزم أن تذكر ذلك للآنسة بلاك وقالت:

«نعم إلى حدّ ما... فهي تعمل بالتطريز وتتحمل أجر السكن سوياً.»

وكتبت الآنسة بلاك شيئا على بطاقة دفعت بها عبر المكتب وابتسمت وهي تقول:

«هاك... ياآنسة وارين وبالمناسبة فان اسمك يطابق اسم الشركة التي أرشحك للعمل فيها وقد يكون هذا فألاً طيباً.»

وخطر لتوني سؤال عما يكون عليه موقف الآنسة بلاك لو عرفت أن بنيامين وارين رئيس شركة واريتز للمجوهرات في شارع بوند ستريت هو عمها الأكبر، رغم أنه لايعرف ذلك ولكنها كانت تشك في أن تهتم الآنسة بلاك بذلك.

ونهضت على قدميها كانت هيفاء ذات قوام جميل، يميل شعرها الأسود الى الاصفرار وتعبر ملامحها عن الاستقلال، وقالت:

«أشكرك كثيرا يا آنسة بلاك، سوف أكون على اتصال دائم بك وسأخطرك بما يحدث.»

وأخذت البطاقة التي تحدد لها موعد المقابلة ووضعتها بعناية في حقيبة يدها، وهبطت الدرج، وانطلقت في شارع أكسفورد.

كان الجو في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني ينذر بشتاء قاس والنهار شديد البرودة، وبدأ الثلج يتساقط وسرعان ما وجدت توني نفسها تتدافع بالمناكب لتشق طريقها وسط الزحام، ولم تتوقف كعادتها لتلقي نظرة على نوافذ العرض الجذابة. وكانت تفكر في أن تشتري هدية متواضعة لأمها ذلك الأسبوع.

شيء لايكاد يصدق - على الاطلاق... من آلاف الشركات في لندن تختار الآنسة بلاك شركة واربنز لترسلها اليها، وفي الليلة السابقة فقط كانت أمها تقول:

«هل تعرفين ياتوني ،لدي أحساس غريب أن شيئاً سعيداً سيحدث.»

كانت السيدة وارين تجمع بين الأضداد فهي واقعية ولكنها تحلم دائما بحياة أفضل. كان زوجها فناناً استولت عليه نزعته الفنية، وكان عليها أن تقبل بما فرضه عليها، ولكن أحلامها ظلت تراودها طوال حياتها وكثيرا ما قالت لتوني:

«في يوم من الأيام سينال أبوك ما يستحق من تقدير وتعرض لوحاته في أشهر المعارض في العالم، وعند ذاك يعيش حياة جديدة فيها السفر، وفيها التعرف على المشاهير - ليس بمجرد أن...»

وكان بوسع توني أن تكمل:

نقتر على أنفسنا، ونكدح طول الوقت.

ولكن أمها لم تكن تشكو، وكان شعرها الأشقر المزغب، وفمها الرقيق يتناقض مع طبيعتها الشجاعة الصارمة، لقد عاشت في كوخ صغير في ديفون حيث

الحياة الرخصة وحيث تزرع ماتحتاجه الأسرة من خضار في حديقة الكوخ الصغيرة، وكانت تصنع ملابس ابنتها توني وقليلا من الملابس لنفسها وبعض ملابس زوجها، وتعمل كذلك في التطريز.

وعندما أكملت توني تدريبها في مدرسة السكرتارية في الثامنة عشرة من عمرها أصيب أبوها بلفحة برد وتحولت الحالة الى التهاب رئوي وعجزت سائر العقاقير عن انقاذ حياته.

ونفذ سهم القضاء، وناقشت توني وأمها ما ينبغي أن تفعلاه، وقالت توني:

«بوسعي أن أجد عملاً في مدينة إكستر لنجد ماندفع منه الايجار ونعيش.»

لكن أمها رفضت بشدة وقالت:

«لا...لا بد أن نرحل من هنا فوراً ونذهب الى لندن.»

وهتفت توني قائلة:

«لندن!؟ كنت أظن أنك تحبين الكوخ والريف، وكل ماحولنا هنا...»

وأجابت السيدة وارين في بساطة:

«كنت أحب أباك ولذلك وافقت أن أعيش معه هنا. والآن ينبغي أن أنتقل الى مكان آخر مختلف تماماً، الى حيث المحلات والأضواء والناس والأحداث. هل تفهمين ماأعنيه ياحبيبتي؟»

وأجابت توني :

«أعتقد أنني أفهم»

«وهل تحضرين معي ؟»

وعانقت توني أمها وهي تقول:

«بالطبع! سوف آتي معك، وسأحصل على عمل ونكون لنا شقة فخمة ونذهب الى المسارح والحفلات الموسيقية ونأكل في المطاعم الفخمة ايه يالندن! اننا في الطريق اليك.»

كان ذلك منذ عامين. ولكن الأمر لم يكن كما تصورتاه، فأعمال النسخ على الآلة الكاتبة كانت تدر دخلاً لا بأس به، والشقة التي وجدتاها في حي هورنس

مفرحة بقدر ما استطاعت السيدة واربن أن تجعلها ولكن الميزانية لم تكن تسمح بالذهاب الى المسارح أو الحفلات الموسيقية. وان سمحت من حين الى آخر بالتردد على السينما مع وجبة عشاء بمحلاتها الى البيت بعد مشاهدة العرض، وواصلت السيدة واربن أحلامها...

وعندما خرجت توني من محطة تيرن بايك لين وجدت الثلج يتساقط بكثافة أكثر ليلتصق بشعرها ويجد طريقه الى عنقها. وخفضت رأسها لئلا تواجه الرياح، وسارت في طريق غرين لين كانت طوال الطريق تحاول أن تتخذ قرارها فيما اذا كانت ستخبر أمها عن المقابلة المنتظرة نهار الغد... كانت تعرف مايمكن أن يحدث لو ذكرت بعض الصدفة التي تجعلها تذهب في مقابلة عمل في شركة واربنز. سوف تطير الأم فرحاً من الدهشة وتحلق بأفكارها لتجعل توني شبيهة بسندريلا، تنتقل من عمل مكتبي قذر الى حياة تزخر بالعظمة والفخامة.

ورأت انه من الأفضل ألا تصرح بشيء حتى تنتهي المقابلة.. أن لم يكن هناك ضمان بأنها سوف تحصل على العمل بحال من الأحوال....

وتركت الطريق الرئيسي المزدحم لتسير في شارع جانبي هو شارع، نبات الأزاليا حيث تسكن ويماثل تماما شارع زهرة الربيع على أحد جانبيه، وشارع نبات السنط على الجانب الآخر، بل يماثل سائر الشوارع الأخرى القصيرة المستقيمة التي تأخذ شكل مربع على الطريق الرئيسي.

وأدخلت توني مفتاحها في الباب رقم ٢٥ وهرولت تصعد الدرج الى أول باب يواجهها. وقررت لو أن أمها موفقة في عملها فسوف تحتفظ توني بنبأ المقابلة لنفسها أما اذا كانت الأمور سارت على غير ماتهوى فسوف تخبرها لترفع من روحها المعنوية.

وفتحت غرفة الجلوس. كانت السيدة واربن تجلس الى موقد الغاز تقدد بعض الخبز وبدا عليها التشاؤم وآلة التطريز تقبع في ركن الغرفة هامدة تحت غطاء من البلاستيك. فلا طلب على العمل.

ولمعت عينا السيدة واربن ومع ذلك بدا على كتفيها شيء من الوهن عرفت

توني أنه موقوت لأن أمها لاتقبل بالاكتئاب لفترة طويلة.

«أهلا ياعزيزتي ها هي ابنتك الحبيبة... ملابسها مبتلة وتشعر بالجوع والتعب»

وابتسمت توني وعانقت أمها التي نهضت حين فتح الباب، وواصلت تقول:

«أوه متأسفة... جعلت ملابسك تبتل من ملابسي»

ودفعت السيدة واربن شعرها الأشقر الناعم الى الخلف، وقالت:

«لاتقلقي بالاً، دعيني آخذ معطفك وحذاءك واذهبي لتبدلي ثيابك وسنشرب الشاي فوراً.»

دخلت توني غرفة النوم واستبدلت ملابسها بنطلوناً وبلوزة فضفاضة وجففت شعرها، وأحست بالدفء، والراحة والرضى عندما سمعت صوت الأطباق والملاعق والشوك من الغرفة المجاورة...وصوت الموسيقى الشعبية الذي يجيء من شقة مجاورة.

وعادت الى غرفة الجلوس ووجدت العربة الصغيرة المتحركة مستقرة قرب المدفأة وعلى كل من جانبيها كرسي عليه وسادة مريحة، بينما جثم على العربة ابريق شاي قصير وكومة كبيرة من الخبز المحمص المغطى بالزبدة واطباق شهية من السمك وكعكة الزنجبيل المصنوعة في المنزل.

وغاصت توني في أحد الكرسيين وصارت تتناول الطعام بشهية وهي تقول:

«ياله من يوم»

وهزت السيدة واربن رأسها مازحة، وقالت:

«لم أجد عميلاً واحداً يكلفني بعمل، حتى السيدة فيشر خيبت ظني وكنت أعتمد عليها بكل كبير ولكن ماذا عنك أنت؟ هل ذهبت الى الآنسة بلاك؟»

وأومأت توني برأسها، وقالت:

«لدي مقابلة لعمل دائم غداً...»

«دائم؟ هل تقبلينه؟»

«قد أقبل...إذا كان المكان مناسباً، ويهيأ لي أنه كذلك هذه المرة.»

«شيء عظيم!»

وسكبت أمها الشاي وأعطتها الفنجان، وواصلت:

«ماسم الشركة؟ وأين مكانها؟»

وارتشفت توني شيئاً من الشاي، وقالت وقد ارتسمت على فمها ابتسامة رقيقة:

«احزري !»

وهزت أمها رأسها عاجزة عن الأجابة، فواصلت :

«قد تدهشين...فأن مقابلتي مع...مع... واربنز في بوند ستريت.»

«واربنز ؟ انك لاتعنين!»

«انني أعني بالفعل شركة واربنز أقاربنا الأثرياء.»

وقهقهت توني وواصلت:

«ما رأيك إذن؟»

وأطبق الصمت على الأم لحظة، وشحب وجهها فجأة، ولكن بدأ الدم يعود متدفقاً الى وجنتيها، ولمعت عيناها بالدهشة، وواصلت توني تقول:

«ولكن لا تعولي على ذلك كثيراً، فالوظيفة ليست في يدنا بعد.»

ولكن حماس أمها بلغ ذروته، وقالت:

«سوف تحصلين على العمل يا عزيزتي توني، أعرف أنك ستحصلين عليه أحسست بهذا الشعور منذ أيام، قلت لك ان شيئاً طيباً سيقع ألم أقل ذلك؟»

وتنهدت في سعادة وواصلت تقول:

«كل سنوات الأمل والتمني، والآن مولد حياة جديدة لنا.»

«يا أمي، لا تغرقي في التفاؤل! ماذا لو أخفق كل شيء بعد ذلك؟»

وهزت السيدة وارين رأسها، وقالت:

««لا تحاولي يا عزيزتي! لا تزعزعي ثقتي! أما عن طالبات الوظيفة الأخريات فما الذي يتميزن به عنك؟ ثم لا بد أن تخبريهم أنك تمتين بصلة القرابة الى رئيس

الشركة فهذا في صالحك.»

وارتفع حاجبا توني، وإتسعت عيناها الرماديتان، وقالت:

«أخبرهم!أعتقد أنك لا تظنين أنني سأفعل ذلك!»

وردت أمها في شيء من التأكيد:

«ينبغي أن تخبريهم! ليس ثمة خطأ أو شبهة في ذلك!»

«ولكن، لكن يا أمي، كنت أعتبر أن كل ما يقال عن أقاربنا الأثرياء مجرد مزاح.»

وتذكرت توني أيام عاشت في الكوخ بموارد محدودة للغاية والأب لا يبيع لوحة من لوحاته لشهور عديدة، وكانت الأم تقول:

«لماذا لا تذهب الى عمك بنيامين في لندن يا فرانك؟ لا لتتسوّل منه، ولكن لمجرد تعرفه بنفسك، فقد يبدي اهتماماً بعملك وربما يجعل احدى لوحاتك تزين مكتبه أو غرفة الاجتماعات، وعند ذاك يراها الناس، الناس الأثرياء ذوو النفوذ، وربما يؤدي ذلك الى كثير من الارتباطات.»

ويبتسم فرانك وارين ويتحدث في صوت خافت ليقول:

«نعم يا عزيزتي، وتقضي القصة الى أن يكون للافيال أجنحة تطير بها.»

وعند ذاك يضحكون، وتضحك مسز وارين أكثر من الجميع. وخشيت توني أن يكون الأمر بالنسبة الى امها أكثر من فكاهة فسألتها:

«أماه! أرجو ألا تكوني جادة!»

ومالت الأم في كرسيها الى الأمام، وقالت:

«انني جادة تماماً يا حبيبتي! أريد لك أن تعيشي حياة أفضل من الحياة التي عشتها.»

ولاذت توني بالصمت، وأحست بعيني أمها تتركزان في قلق عليها، لم يعد صوت الموسيقى الشعبية من الشقة المجاورة في ذلك الوقت مألوفاً كما كان.

وهزت توني رأسها في حزم وقالت:

«لا أستطيع.»

«ولكن.»

«أنصتي يا أمي! المسألة ليست أنني متكبرة أو شاذة أو شيء من هذا القبيل. كل ما أعرفه أنني عندما أصل الى هذه النقطة لا أستطيع».

وساد صمت أخرثم ابتسمت السيدة وارين، وقالت:

«إنك مثل أبيك يا توني، حسناً اذا كان هذا رأيك فلن نتحدث في هذا الموضوع بعد الآن. ولكن ستذهبين لاتمام المقابلة. عديني بأنك ستذهبين».

وضحكت توني وقد أحست بالارتياح، وقالت:

«نعم، سأذهب للمقابلة وأعد بذلك، وسأبذل جهدي لأحصل على الوظيفة لأنها على ما يبدو وظيفة مناسبة».

وأومأت مسز وارين برأسها، وقالت:

«سوف ننتظر ونرجو خيراً باذن الله. والآن ـ لنتكلم في شيء آخر».

«هل أحضرت الكتيبات الخاصة بالرحلة الى اسكتلندا؟»

وأمضيتا بقية المساء في حديث حول رحلة في عربة تجرها الجياد في اسكتلندا، وكان الحديث مادة للأحلام كذلك. لأنه لم يكن من المؤكد أن تتاح لهما الموارد للقيام بمثل تلك الرحلة.

وبدت على توني البهجة فقد ارتاحت لأن أمها تقبلت الموقف بالنسبة الى المقابلة التي كانت تزمع اتمامها في اليوم التالي، وعندما نهضتا في النهاية لترفعا الأطباق، من المائدة عانقت توني أمها وقالت:

«أشكرك على تقديرك لموقفي يا أمي. وسأبذل جهدي غداً».

أما أول مرة دخلت فيها توني الى أحد محلات المجوهرات ـ حسبما تسعفها الذاكرة ـ فكانت عندما حضرت الى لندن لأول مرة، وذهبت لتشتري لنفسها ساعة يد لتكسب رضى من تتعامل معهم من أصحاب الأعمال الذين يحرصون بصفة خاصة على ضبط المواعيد، وكان في محل الجواهر ذاك صفوف من خواتم الخطوبة والزواج وضعت على رف زجاجي وكان على الرفوف كذلك أزرار قمصان ذهبية وأباريق زجاجية مطلية بالمعدن خلف مجموعة منتقاة من ساعات التنبيه. وكانت تعرف أن شركة واريتز في شارع بوند ستريت لن تكون

شيئاً مشابهاً لذلك، ودخلت الى داخل يشبه الى حد كبير كهف علاء الدين الخيالي، كما كانت تتخيله في الليلة السابقة. وغاصت أقدامها في سجادة صغيرة فاخرة حسبت انها لا بد أن تكون من الشرق الساحر، لم يكن هنالك طاولة بمسند زجاجي وانما كانت هناك طاولتان حفرت على قوائمها زخارف دقيقة والى جانبها كراسي صغيرة ذات أذرع غطيت بتنجيد من البروكار الأحمر وكما كسيت الجدران بالخشب بينما تدلت من السقف ثريا كريستال وفي أحد أركان الغرفة ساعة حائط كبيرة قديمة مطعمة، تدق في رفق. واحدى السكرتيرات تجلس على كرسي في أناقة بشعرها الفضي، تلبس سترة فراء ثمين وعلى أصابعها خواتم ثقيلة، وأمامها بائع في أواسط العمر يلبس بذلة قاتمة ويعرض على المفرش القطيفي الأسود الذي يغطي الطاولة مجموعة من الدبابيس وأحسّت توني بشيء من الحرج اذ كانت تلبس سترة عادية من الجلد.واستدارت الى المشرف، وقالت:

«عندي موعد في الساعة الثانية عشرة، واسمي الآنسة وارين...»

وحدق الرجل فيها وقال:

«الآنسة أر... وارين؟»

وابتسمت، وقالت:

«نعم»

وقال الحارس:

«أرجوك أن تنتظري هنا لحظة يا آنسة، وسأجد من يصحبك الى الطابق العلوي».

وعاد ومعه امرأة نحيلة في بذلة أنيقة تلبس أقراطاً مطعمة ببعض حبات اللؤلؤ الرقيقة، وسمعت المرأة تناديها في صوت خفيض مهذب:

«آنسة وارين!تفضلي معي!»

وسارت أمامها من خلال فتحة مقوسة الى غرفة أصغر شبيهة بالغرفة الأولى. وفي مؤخرة هذه الأخيرة سلّم عريض له حاجز مزخرف يؤدي الى ردهة مغطاة بالسجاد في الطابق العلوي، وعلى باب الى اليمين لافتة حفرت عليها الكلمات السيد ج.ر.لورنس.وطرقت مرافقة توني الباب بخفة وجاء صوت من الداخل

يقول:

«أدخل!»

وأحسّت توني باضطراب عصبي في معدتها لقد تنقلت بين مكاتب النسخ على الآلة الكاتبة وشهدت الكثير من أساليب تنظيم تلك المكاتب، ولكن لم يسبق لها أن شهدت مكتباً كهذا... لم يكن هناك شيء من جو الألفة الذي تعودته وبدا كل شيء محاطاً بالرسميات وتخيلت كذلك أنه يغرق بشكل زائد في الأناقة... وتذكرت وعدها لأمها بأن تبذل جهدها لتحصل على العمل، وعليها الآن أن تتم المقابلة.

كانت الغرفة صغيرة أثثت بمكتب ضخم من خشب الماهوجني جلس خلفه رجل يشتغل بالكتابة بينما انتثرت على المكتب بعض الكتب والملفات والأوراق... وأحسّت توني بأن المكان ينقص شيئاً من الترتيب وزادت ثقتها بنفسها بعض الشيء.

وأخذت المرأة حزمة من الأوراق من على طاولة جانبية ووضعتها على المكتب، وقالت:

«هذه آخر طالبة للوظيفة يا سيد لورنس.»

وأجاب في تشاغل، بدون أن يرفع رأسه:

«حسناً، أشكرك يا سيدة جنيز.»

وأشار الى توني إشارة مبهمة:

«أجلسي!»

واستمر في الكتابة، وانسحبت السيدة جنيز وأغلقت الباب، وجلست توني تنتظر، كانت تعرف من خبرتها خلال عامين الأساليب التي تستخدم في المقابلة، فبعض المسؤولين عن المقابلة يظهرون بمظهر ودي ويتيحون لمن يؤدي المقابلة أن يكون على سجيته... بينما يحاول آخرون أن يجعلوا من يؤدي المقابلة يحس بالقلق وعدم الارتياح ونقص الكفاءة. وهناك فئة أخرى صغيرة جداً تنظر نظرات خبيثة، وأخذت تفكر في الرجل الذي يجلس على الجانب الآخر من المكتب ومن أي فئة

يكون؟

لم تستطع من المكان الذي تجلس فيه أن تتبين تحديداً لملامح وجهه ولكنه بدا أكثر شباباً مما توقعت، في منتصف الثلاثينات من العمر يظهر حازماً بمنكبيه العريضين وسترته الصوفية الرمادية. أما قميصه فكان من الكتان الأبيض المتموّج مع رباط عنق من الحرير القرنفلي الأحمر، وبدت أزرار القميص الذهبية تلمع في معصميه.

وطالت فترة الصمت، وواصل عمله في الكتابة وبدأت توني تشك في أنه من النوع الذي يعيش فيه أقاربها الأثرياء، فلن يكون الجو الذي يلائمها بأي حال من الأحوال، وأحسّت بالرغبة في أن تنهض وتنصرف وكادت تفعل ذلك إلاّ أنه في تلك اللحظة بالذات رفع رأسه ونظر نحوها.

وحدث شيء غريب للغاية فقد استمر يحدّق اليها، وحدّقت توني تجاهه بالمثل، لم تكن ملامحه تدل على شيء ولو لم تكن تعلم أنه ليس بينه وبينها أية صلة سابقة لظنت أنه كان يحاول أن يتذكر صلة قديمة بينهما. كان كمن أصيب بشيء من الصدمة، وظنت أنه لا بد أن يكون لها شبيهة في مكان ما.

وبدأ يتحسس الأوراق التي وضعتها السيدة جنيز على مكتبه بدون أن يحوّل عينيه عن وجهها، وأحسّت بقلق حقيقي... ثم حوّل بصره الى الأوراق أمامه، وقال:

«أنت الآنسة وارين؟»

وابتسمت وقالت:

«نعم، مصادفة، أليس كذلك؟»

وعاود النظر الى الأوراق وواصل يقول:

«أنت من طرف الآنسة بلاك وعمرك ٢١ عاماً، أما عن خبرتك السابقة...»

ونظر الى الأوراق على نحو سريع خاطف ثم أزاحها جانباً وأسند ظهره الى الكرسي، وقال:

«حسناً، يا آنسة وارين، يبدو أنك حضرت الى هنا في مهمة فاشلة، وأعتقد أن

الآنسة ويلز لا بد أن تكون أساءت فهم رسالتي، اذ أوضحت لها أنني أريد شخصاً أكبر في السنّ بخبرة أكثر مما لديك، فنحن نحتاج الى موظف من نوعية خاصة للغاية، ولذلك فانني آسف.

وأحسّت توني كأنه صفعها على وجهها ولم تكن تصدق كلمة واحدة مما قاله... لا.... لا بد أنه أحس بكراهية فورية لها لأنها ذكرته بشخص لا يريد أن يتذكره.

ونصبت قامتهاوأحسّت أنها لن تفقد شيئاً بعدما فقدت الأمل في الوظيفة، ولم تجد سبباً يمنعها من أن تجعله يعرف بصراحة رأيها.

وبدأت تسأل:

«هل لي أن أسأل ما اذا كانت الوظيفة المعروضة هي وظيفة سكرتيرة لك؟»

«نعم... كانت كذلك.»

وعند ذاك قالت:

«اذن لا داعي لأن تشعر بأي أسف، لأنه لو عرضت عليّ الوظيفة لرفضت قبولها بكل تأكيد، ان كل شيء هنا يبدو أنيقاً وعريقاً بدون شك، ولكنني أفضل أن أعمل في مكان أكثر الفة.لا يتركز العمل فيه حول الأثرياء. القلة المحظوظة.»

قالت ذلك وهي لا تدرك أنها تردد ما كانت تسمعه عن أبيها كلمة بكلمة.

ونهض السيد لورنس وقال في برود:

«شيء يستحق الاهتمام، وأقترح أن تبحثي عن وظيفة تتفق مع ذوقك. ولا تضيّعي وقتي أطول من ذلك.»

وابتسمت ابتسامة الانتصار اذ نجحت في تحدي ثقته ولو للحظة، وقالت:

«أسعدت صباحاً، يا سيد لورنس.»

قالتها في عذوبة، وخرجت من المكتب ترفع رأسها عالياً.

وهبطت الدرج، واجتازت غرفتي عرض المجوهرات، وحيّاها الحارس الذي فتح الباب الزجاجي الثقيل بقوله:

«أسعدت صباحاً يا آنسة.»

وأومأت برأسها في لباقة، وانصرفت. وخرجت الى بوند ستريت وأحسّت برياح شديدة البرودة تلفح رسغي قدميها وهي ترتعد من الوهن في أعماق نفسها. وتوقفت للحظة بجانب نافذة عرض واربنز لتستجمع قواها. ونجحت في ذلك. وبحثت عن منديلها، ونفخت أنفها واستدارت بعيداً تجاه بيكادللي عائدة الى بيتها.

ولم تكن قد اجتازت أكثر من خمسين ياردة عندما أدركت أن شخصاً ما كان ينادي اسمها بطريقة متكررة، وتوقفت لتجد حارس البوابة الذي يميل الى كبر السن يجد في اثرها يقول:

«آنسة واربن.»

قالها وهو يلهث، وشعره الخفيف تعبث به الرياح.

«آنسة واربن، من فضلك، السيد لورنس يرجوك أن تعودي، انه يريد أن يتحدث معك مرة ثانية.»

وترددت توني بعض الشيء، بينما كان المارة على الجانبين ينصرفون من حولها.

كان البواب يحمل على ياقته اسم واربنز في حروف ذهبية مزخرفة ورأت أنه من الأسلم أن تستجيب له حتى لا يظن أحد أنها تفرّ بشيء مسروق، وقد أخذ بالفعل واحد أو اثنان من المارة بالنظر اليها نظرات استغراب.

وهكذا اضطرت على مضض أن تعود الى المحل. بعدما ظنت أنها قالت كلمة الوداع الى الأبد لذلك الشخص الكريه السيد لورنس.

وأخذت تفكر فيما عسى أن يريده منها؟

٢ - لأنها تشبه زوجته!

لم تؤخذ توني في هذه المرة الى مكتب الطابق العلوي، بل الى غرفة خلف قاعة بيع المجوهرات، ووجدت السيد لورنس يقف الى جوار المدفأة في شيء من اللامبالاة، بينما نقلها جو الغرفة الى العصور التاريخية...

وقريباً من المدفأة كان كرسي له ظهر مرتفع جلس عليه رجل مهيب يميل الى كبر السن، تصوّرت توني أنه بنيامين وارين عاهل الأسرة التي تركزت حولها أماني أمها في الثراء. شعره أبيض ورباط عنقه حريري يبرز منه دبوس ذهبي، ولحية بيضاء سويت بعناية ومونوكل يتدلى حول عنقه وعيناه رماديتان صافيتان فيهما شبه كبير بعيني أبيها. وقال في صوت رقيق مهذب:

«أنت الآنسة وارين؟ اجلسي! أحضر لها كرسياً يا غراي!»

وأحضر لها الكرسي فتمتمت بالشكر، وواصل الرجل المهيب يقول:

«والآن يا آنسة وارين... ربما يمكن أن تشرحي لي هذا...»

وأخذت توني ورقة أعطاها أياها ونظرت فيها وبدا عليها فجأة شيء من الشك الفظيع فقد قرأت بخط أمها رسالة تقول:

عزيزي السيد وارين،

إنك لا تعرفني، ولكنني أرملة فرانك وارين إبن أخيك الذي مات في ايطاليا منذ سنوات. قررت أنه ربما يهمك أن تعلم ان ابنتي أنطونيا وهي الابنة الكبرى لحفيدة شقيقك ستجري مقابلة اليوم مع مدير أعمالك، وهي تحس بحرج كبير يمنعها من ذكر علاقة القرابة التي تربطنا، ولذلك أكتب اليك

شخصياً لأذكرك بصلة الدم، وأعتقد أنه حان الوقت لننسى خلافاتنا العائلية بعد هذا الوقت الطويل ولعلك توافقني على ذلك.

المخلصة:

مارغريت وارين

وألقت توني بالرسالة وقالت في صوت خفيض:

«أنا آسفة لهذا، أخطأت أمي بأن كتبت اليك بدون أن تخبرني»

كان الرجل المهيب ينظر اليها في اهتمام، وحول بصره الى الرجل الواقف الى جوار المدفأة وقال:

«وضّح لي يا غرانت لا أكاد أفهم شيئاً، هل جاءت الآنسة وارين لتشغل وظيفة السكرتيرة؟»

«بالضبط يا سيدي.»

«وكنت تجري لها المقابلة عندما فضضت الرسالة وأرسلت اليك أطلب رؤيتها؟»

«اتفقنا أنها أرسلت الى الوظيفة خطأ، وكانت قد انصرفت.»

ودهشت توني لذلك التحوير الجريء للحقيقة، ورفعت بصرها لتجد غراي ينظر اليها كأنه يتحداها أن تنكر ما قاله فاستولى عليها انفعال بالغضب والتفتت الى السيد وارين تقول:

«هذا ليس صحيحاً فليس ثمة خطأ في تقدمي لهذه الوظيفة. ولقد واجهني السيد غراي لأول وهلة بأنني ضيعت وقتي بحضوري وأنني لست على الاطلاق من يريد.»

كان وجهها الأشقر المائل الى السمرة يتحدث في ثقة وعيناها الصافيتان تلمعان في غضب.

وابتسم ابتسامة جافة قائلاً:

«تتحدثين كعضو في اسرة وارين تماماً.»

وواصل يقول:

«اصفحي عن الطيش يا عزيزتي، أعترف انني أشعر على الأقل أنني لست

العضو الأخير في أسرة وارين كما كنت أظن.»

وانحنت توني تجاهه قائلة:

«اذاً فأنت تعتقد في صدق الرسالة، كنت أخشى أن تظن أنني مدعية.»

«ولم لا أصدق؟»

كان صوته رقيقاً، وواصل يقول:

«ان وجه الشبه واضح بدرجة كبيرة، ولعلك رأيته يا غراي؟»

ورأت توني النظرة التي تبادلها الرجلان، كانت نظرة مليئة بالمعنى ولم تستطع أن تفهم كل ما تعنيه، وعلق غراي لورنس قائلاً:

«أوه! نعم لقد رأيته!»

وأخذت توني تخمن من يكون ذلك الشخص الشديد الشبه بها الذي جعل لورنس يتخذ منها ذلك الموقف، وعاد اليها الحرج أقوى مما كان لماذا كتبت أمها تلك الرسالة؟ لم يكن في نظرها ثمة أمل يرجى من محاولة احياء علاقة قرابة اندثرت منذ زمن بعيد، فقد مضى أكثر من خمسين عاماً على المشاجرة التي جعلت جدها يترك الأسرة وكان عالم بنيامين وارين عالماً يختلف تماماً عن العالم التي تعيش فيه هي وأمها الآن.

ونهضت في شيء من التهور واصطنعت ابتسامة وهي تقول:

«أشكرك لأنك صدقتني وآسفة مرة أخرى لتجرؤ أمي على الكتابة اليك... لقد أبديت كرماً زائداً تجاهي ولكني لا أطمع في أن تحظى تلك القرابة البعيدة باهتمامك، واذا أذنت لي فاني أنصرف وأكرر شكري.»

وهز بنيامين وارين رأسه وقال:

«انك تتحدثين في لباقة تامة يا عزيزتي ولكن كلامك غير صحيح على الاطلاق، فالحق أنني أحس باهتمام زائد للغاية بك والعلاقة بيننا ليست علاقة بعيدة على الاطلاق، هل يخطر لك أنني لا أريد أن أعرف أخبار أخي ـ جدك ـ الذي هجر الأسرة في يوم من الأيام وكاد يحطم بذلك قلب أمي لأنه رفض أن يأخذ مكانه في عمل الأسرة؟ هل خطر لك احساسي بالأسى عندما جاءتنا الأخبار بأنه فقد في

الحرب الأولى وأنني بعد وفاة أبي لم أبذل أقصى جهدي لأستكشف ما اذا كان على قيد الحياة؟ أما زلت تتخيلين أنني لا أريد أن أعرف عنك كل شيء، يا أنطونيا؟»

«أ... آسفة... لم أكن أنظر الى الموضوع هكذا.»

وجلست على حافة الكرسي من جديد، وقالت:

«أرجوك أن تسألني ما شئت من أسئلة وسأجيب بكل ما أعرف، ولكنني لم أر جدي، فقد مات قبل ولادتي.»

وأومأ بنيامين وارين وقال:

«نعم... نعم... بالطبع... ولكن هناك أشياء أخرى... أشياء صغيرة.»

وخفت الصوت الرقيق وأخذ يتطلع الى الساعة النحاسية فوق رف المدفأة ثم الى الرجل الواقف الى جوارها. وقال:

«انني أنتظر مكالمة من بولستون في باريس خلال دقائق يا غراي. وبعد ذلك سأكون حراً لمدة ساعة تقريباً.»

إستدار الى توني يقول:

«بوسعك أن تعيريني بعضاً من وقتك؟ أم لديك عمل تريدين الذهاب اليه؟»

«انني خالية حتى الواحدة والنصف.»

«حسناً... واذاً فاسمحي لي أن أدعوك الى وجبة متواضعة في مطعم صغير ليس بعيداً من هنا حيث نجد فرصتنا للحديث... غراي! خذ أنطونيا الى مطعم كارلي وسألحق بكما!»

«بكل تأكيد... تفضلي يا آنسة وارين!»

ونهضت توني وعيناها تتجولان بينه وبين الرجل المهيب الجالس على الكرسي، أما بنيامين وارين فكان يبتسم ابتسامة مشجعة، وقال:

«اذهبي معه يا عزيزتي!»

وتبادل الرجلان نظرة لم تدرك توني مغزاها، ثم وجدت نفسها في غرفة بيع المجوهرات تسير الى جانب غراي لورنس وتحس باحساس لم يسبق لها أن

أحست بمثله، لو أنه فقط تحدث بشيء يزيل عنها التوتر، ولكنه كان يسير كأنه مالك المكان، وربما كان كذلك بطريقة ما، فقد كان بنيامين وارين يستشيره ويعتمد عليه دائماً،وأحسّت بأنه رجل بغيض. وأختلست نظرة اليه جعلتها تحس بأن سترته صارت موضة قديمة وأن حذاءه وقفازيه وحقيبة يده كانت متواضعة للغاية غير أن الشيء الوحيد الذي لم تدركه انه يسير في رشاقة طبيعية يرفع رأسه فوق العنق النحيل. ولم تكن تدري كذلك أن أية امرأة تحسد ساقيه الطويلتين النحيلتين وبشرته الصافية وعينيه اللامعتين كالبلور الصافي.

وتوقف غراي لورنس عند الباب وخاطب الحارس قائلاً:

«بيتس! أرجوك أن تخبر السيدة جينز أنني سأتغيب بعض الوقت واذا جدّ ما يستدعي الاتصال بي فانني في مطعم كارلي.»

ولمس بيتس قبعته، وفتح الباب الزجاجي الثقيل وهو يقول:

«سمعاً وطاعة يا سيدي.»

وخرجا الى شارع بوند ستريت وقال:

«من هنا..»

ووضع يده أسفل مرفقها ليوجهها الى اليمين، وأخذا يجتازان بين زحام المشاة والواقفين أمام نوافذ العرض، وأحست بأصابعه تضغط على ذراعها وتمنت لو أزاح أصابعه بعيداً وأحسّت بالضيق عندما أصرّ على وضع يده على ذراعها فجعلت خطوها يسبقه ولكنها اصطدمت بسيدة سمينة قادمة من الاتجاه المضاد، واضطرت الى الاعتذار، وجذب ذراعها من جديد وهو يقول:

«ما هذا الذي تفعلينه؟ أتريدين أن يقع كلانا على الأرض؟»

وسارا في ممر ضيق، وصعدا الدرج الى قاعة استقبال صغيرة مريحة حيث بادره مضيف يرتدي سترة بيضاء بالتحية، وقال:

«صباح الخير يا جيوفاني، سوف يحضر السيد وارين خلال دقائق وأثناء ذلك أحضر لنا بعض الشراب!»

واستدار الى توني يقول:

«ماذا تشربين؟»

لم تكن توني قد تعودت على تلك الأجواء حيث تقدم المشروبات قبل وجبة الظهيرة، وقالت:

«ليموناضه من فضلك!»

وارتفع حاجبا غراي بعض الشيء، وقال:

«يمكنك أن تطلبي شيئاً أفضل من ذلك... أعملي خيالك يا عزيزتي!»

وكررت في حزم وهي تبتسم:

«ليموناضه!»

انحنى المضيف قائلاً:

«بالتأكيد يا سيدتي!»

وواصل يقول:

«ومشروبك المعتاد يا سيدي؟»

وقادهما الى طاولة صغيرة وضعت بجانبها مقاعد وثيرة، وانصرف وبدأ غراي لورنس يقول:

«انك تلعبين دورك بطريقة ماهرة، هل تخلعين سترتك؟ سيكون الجو شديد الدفء داخل قاعة الطعام.»

وفكرت في الرفض رغبة في الاعتراض، ولكن الجو كان شديد الدفء، وحلت أزرار سترتها الجلدية فأخذها عن كتفها بطريقة تكشف أنه يحذق صحبة النساء.

وبدأت تسترخي في المقعد الوثير على أمل أن يجلس في المقعد المقابل ولكنه جلس الى جوارها ومدد ساقيه أمامه، وقال متأملاً:

«نعم انك تقومين بالدور بمهارة كاملة.»

وردت توني في صلابة:«لا أعرف عما تتحدث.»

وتشدق يقول:

«دور ذلك البريء الصغير بعينيه الواسعتين...»

وأومأ بالشكر لجيوفاني الذي وضع المشروبات على المائدة، وواصل:

«أنا لا ألومك... لا تظني ذلك! إنني شديد الاعجاب بالطريقة التي خططت بها كل شيء. كم طال انتظارك لفرصة العمل مع شركة وارين؟ وكيف حصلت على تزكية من الآنسة بلاك؟ ثم تلك الرسالة التي وصلت من أمك في الوقت المحدد بالضبط وأعتقد أنها جاءت باليد وكان هناك احتمال بأن ينتهي كل ذلك الى لا شيء.»

وحدقت توني تجاهه وهي لا تكاد تصدق وقالت:

«هل تعني انني دبرت كل ذلك لأقنع السيد وارين؟

ولماذا لا تقولين العم بنيامين؟»

قالها في شيء من السخرية وهو يتناول كأسه. ولمعت عيناها في برود، وقالت:

«حسناً العم بنيامين، إنه عمي رغم كل شيء، انه عمي الكبير.»

ونظر اليها في شيء من التحقير، وقال:

«وتقدمت بطلب العمل الى الشركة وكأنك لا تطمعين في أي شيء... أوه إنك حادة الذكاء.»

والتفتت اليه قائلة:

«انك تخطيء، انا لا أعتقد أنني حادة الذكاء، لم تكن هناك مؤامرة ولم أكن أعرف أن أمي كتبت تلك الرسالة وعندما تركتك كنت اعتزم الانصراف وعدم الاقتراب من وارين ثانية.»

وأضافت في مرارة:

«وليتني ما رجعت!»

وقال لورنس في رقة:

«لا تقولي ذلك! فكّري في بنيامين! لقد أحس بسعادة غامرة لاكتشافه تلك القرابة المجهولة.»

ونظر في كأسه وواصل يقول:

«الشيء الذي يحيرني هو التوقيت! لماذا لم يثر هذا الموضوع قبل الآن؟ في السنة الماضية مثلاً؟ أو التي قبلها؟»

وانفعلت توني انفعالاً مفاجئاً بالغضب جعلها تنفجر قائلة:

«اسمع يا سيد لورنس! أبديت منذ اللحظة الأولى كراهية شديدة نحوي ووجهت اليّ الاهانات بدون أن أفهم سبباً لذلك واذا كنت لا تطيق الانتظار معي فيمكنك أن تتصرف وتتركني وحدي.»

وانفجر ضاحكاً بطريقة أثارت كدرها الشديد، ورفع كأسه تجاهها قائلاً:

«برافو! انني أقدّر الفتاة المتحمسة، ولكنك أخطأت فهمي، فأنا لم أكرهك على الاطلاق بل على العكس لو كانت الظروف مختلفة لأحببتك كثيراً.»

وحدقت تجاهه للحظة بالجرأة التي كان يحدق بها وعندما أحست بالحرارة تسري في وجنتيها حوّلت بصرها بسرعة. وبدا أنه لاحظ الاضطراب المفاجيء الذي اعتراها وارتعش فمه وهو يقول:

«لعل القدر شاء أن يرى كلانا الآخر كثيراً فلن أتصدى بالاعتراض ضدك. وأعترف لك إنني قررت عندما رأيتك لأول مرة أن أتخلص منك بأسرع ما يمكن.»

وأكملت توني:

«وبأقصى ما يمكن من الوقاحة، هل لي أن أعرف لماذا؟»

وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الضئيلة الساخرة من جديد وهو يقول:

«هل كنت وقحاً؟ إنه اهمال بدر مني! يمكنك أن ترديه الى المفاجأة فان بينك وبين زوجتي درجة كبيرة من الشبه ولم أكن أطيق أن أراك قريباً مني، بل ان مجرد أنك تحملين اسم وارين يكفي ليجعلني اتراجع كانت زوجتي أيضاً من أسرة وارين حفيدة بنيامين وارين.»

وحدقت توني تجاهه تسأل في تعثر:

«كانت؟»

وعلق قائلاً:

«نعم فقد قتلت في حادث سيارة في ميدج منذ أكثر من سنة.»

ولهثت قائلة:

«أوه! انني آسفة.»

«لا داعي للأسف؛ فأنت لا تعرفينها على الاطلاق وستكون الظروف في صالحك. فسوف يرى فيك بنيامين هدية من السماء لأنه كان يحبها كثيراً.»

وألقى بالكأس، ونهض يقول:

«ها هو قد وصل وسوف تستريحين مني... واصلي القيام بدورك.»

قالها في سخرية واضحة واحنى رأسه من باب الرسميات والتفت ليغادر قاعة الطعام وتوقف في طريقه ليتحدث الى بنيامين.

ظلت توني ترقب الرجلين وهما يتحدثان وأحسّت انهما يشكلان ثنائياً. فالرجل الأكبر سناً متأنق كجيله السابق برباط عنقه والمونوكل. أما غراي لورنس فيمثل الجيل الحاضر أو على الأقل احدى شرائحه الاجتماعية في زيّه الأنيق وقميصه الأبيض المتموج وبشعره المشط بعناية.

ونظر الرجلان اليها وابتسم بنيامين ورفع يده للتحية وجاء الخادم وانصرف غراي، وبعد حوار قصير مع جيوفاني مشى بنيامين وبدأ عبر قاعة الاستقبال الى حيث جلست توني. وقال:

«ارجو أن يكون غراي قد قام بالواجب يا عزيزتي، فقد استغرقت المكالمة وقتاً أطول مما كنت أتوقع وأخشى أن أؤخرك عن ارتباطاتك. هل أنت مستعد يا جيوفاني؟»

وجدت توني نفسها في قاعة الطعام الصغيرة المجاورة لقاعة الاستقبال حيث يعبر كل شيء عن الأبهة والفخامة وبدا لها ذلك تبذيراً لا مبرر له.

وجلس بنيامين على الجانب الآخر من الطاولة يبتسم وقال:

«انه شيء يدعو للسرور أن يستضيف الانسان شابة جميلة وخاصة عندما يتضح انها الحفيدة الكبرى لشقيق طال الوقت على فقدانه. لقد طلبت أصناف الطعام لكلينا يا أنطونيا وبالنسبة اليّ فانني أفضل الأطعمة العادية وارجو أن يعجبك لحم البط الصغير مع الشمام الذي يقدم أولاً بالاضافة الى أحد أطباق كارلي فيما بعد.»

وتمتمت توني تقول:

«سيكون لذيذاً.»

وكان كذلك بالفعل بل كانت ألذ أكلة تناولتها وأحسّت بلمسة عطف أبوي في صوته، ووجدت نفسها تنجذب اليه.

وبدأ الناس يفدون على قاعة الطعام ومعظمهم ممن ينم ملبسهم وسلوكهم عن الثراء، واصطحب واحد أو اثنان منهم سيدات أنيقات وحرص الكثيرون منهم على تحية بنيامين كأنه من مشاهير رجال السياسة واستمتعت توني بذلك. فقد بدا عمها الكبير شخصية مرموقة في غرب لندن. وكان بنيامين يركز اهتمامه على توني وقام بدور المضيف الممتاز فجعلها تحس بالارتياح الكامل، وعندما جاء دور القهوة أحسّت بالاسترخاء وبالخلو الكامل من القلق، وعندئذ قال بنيامين:

«والآن يا أنطونيا... حدثيني بالتفصيل عن أسرتك.»

وحدثته بكل ما يثير اهتمامه فقالت:

«أعرف أن جدي ـ شقيقك ـ تزوج من سيدة بولندية بعد الحرب العالمية الأولى، توفيت بعدما ولدت أبي، وكان أبي يتحدث عن طريقة تربية أبيه ليكون فناناً مثله وكيف كانا يتجولان معاً في أوروبا ليريا اللوحات العجيبة والنحت والمباني. لم يكن لهما بيت خاص طوال حياتهما، وأعتقد أن أبي لم يحصل على أي قدر من التعليم ـ أقصد التعليم المدرسي وكان يمزح ويقول: انه لا يستطع أن يجمع اثنين واثنين. ولكنه كان يتحدث في الأدب والفلسفة والموسيقى والفن، وأعتقد أنه تعلم ذلك خلال مصاحبته لأبيه طوال الوقت. وسمعت أبي مراراً يقول: ان أباه لم يكن حريصاً على المال بل ربما كان يحتقر النقود مما يبدو شيئاً غريباً لي.»

وعلق بنيامين وارين:

«ولكنه ليس كذلك بالنسبة الي... اكملي.»

«الحق أنني لا أعرف أكثر من ذلك، كان ذلك قبل مولدي بزمن طويل.»

وسألها في صوت خفيض.

«هل تعرفين كيف لقي جدك حتفه؟»

«لا، ولكنني أعرف أن أبي كان معه، وكان يقوم على تمريضه وأن ذلك حدث في روما وبعدها ذهب أبي الى باريس ليعمل في رسم اللوحات وهناك قابل أمي وتزوجها، وقبيل الحرب مرض أبي وكان عليه أن يعيش في منطقة ذات هواء متجدد؛ فرجعا الى لندن ليعيشا في كوخ صغير في منطقة ديفون حيث ولدت، وأعتقد ان مولدي كان مفاجأة لهما.»

«وهل ما زال أبوك هناك؟»

وبدا عليها الحزن، وقالت:

«لا بالطبع مات أبي منذ أكثر من عامين بقليل وعند ذاك حضرت مع أمي الى لندن. كانت تتمنى دائماً أن تعيش في لندن حيث فرصة العمل أيسر وهذا هو كل شيء... هل هذا ما أردت أن تعرفه؟»

وأخرج بنيامين منديلاً أبيض مطوياً من جيبه وأخذ يقوم بتلميع زجاج المونوكل في تباطؤ وأعاد المنديل الى جيبه وقال:

«أشكرك يا أنطونيا ولن أستطيع بحال أن أجعلك تفهمين مدى ما تعنيه هذه المقابلة لي كأني بها استعيد خيطاً من شبابي، كنت وأخي لا نفترق وأصبت بصدمة قاسية عندما اختلف مع أبي ورفض أن يشارك في عمل الأسرة وتركها ليصبح فناناً، ولم يكن بوسعي عند ذاك أن أفعل شيئاً لأمنع ذلك وكان أبي يتصرف في الأسرة كأنه حاكم مستبد.»

وصمت لحظة قصيرة، وقدرت توني أنه كان يعود بذكرياته الى الماضي البعيد ونسي أنها تجلس أمامه وسرعان ما رفع رأسه يقول:

«اعذريني! والآن حدثيني عن نفسك!»

«أنا لا أستحق هذا الاهتمام، عمري ٢٦ عاماً، وتدربت كسكرتيرة وأعيش مع أمي في شقة في حي هورنسي، عملت خلال العامين الأخيرين في وظائف مؤقتة في لندن... هذا كل شيء.»

ولمعت عيناه، وقال:

«هذا وصف مختصر جداً، وماذا عن صداقاتك؟ انك جميلة للغاية ولا يعقل ألاّ تكون لك صداقة من بين الشباب.»

«هذا إطراء منك؟ ولكن ليس لي صديق بذاته، كان هناك أحدهم في ديفون نشأنا معاً وكنا نذهب الى المدرسة سوياً، ولكن أبويه هاجرا الى استراليا ورحل معهما، وهكذا انتهت علاقتنا. ومنذ أن حضرت الى لندن لا يوجد شخص معين.»

وابتسمت عبر المائدة تجاه بنيامين وقالت:

«أعتقد أنني أنتظر أمير الأحلام.»

وكان الغريب في تلك اللحظة بالذات أنها رفعت بصرها لتجد غراي لورنس يتجه اليها وقد قطب جبينه، وعندما وصل الى المائدة نظر الى بنيامين ثم نظر الى توني وفي عينيه تعبير غريب عابث.

ونظر بنيامين الى غراي قائلاً:

«هل جد جديد ـ يا غراي؟»

«اتصل بولستون منذ لحظة للمرّة الثانية يا سيدي ويبدو أنه قلق بخصوص عقد الايجار ويقول انه يريد قراراً نهائياً في موعد أقصاه الغد، وفكرت في اخطارك على الفور فربما تكلفني بجمع بيانات أخرى.»

وتنهد بنيامين وقال:

«العمل! ألا أستطيع أن أصطحب فتاة في أحد المطاعم بدون أن ـ يقطع عليّ العمل ذلك.»

ونظرت توني الى ساعتها وقالت:

«أعتقد ينبغي أن أنصرف الآن وإلاّ تأخرت على عملي.»

«هكذا يا عزيزتي؟ اذاً سيدبّر لك غراي سيارة أجرة، هل أعددت لها السيارة يا غراي؟ سوف تلحق بك أنطونيا.»

ونهضت توني ونهض بنيامين كذلك وأمسك بيدها وهو يقول:

«انك لا تعرفين يا طفلتي العزيزة كم كانت هذه المفاجأة سارة لي، وانني أتطلع الى

الاحتفاء بك في منزلي قريباً بعيداً عن جو العمل هذا.»

وتراجعت الى الخلف قليلاً اذ لم تكن قد تهيأت لذلك، كانت تعتقد أنها بعد أن أخبرت بنيامين بكل ما تعرفه عن أخيه الذي توفي منذ زمن طويل لن يكون بحاجة الى الاهتمام بها بعد ذلك. ولم تكن هي بدورها راغبة في أن توثق صلتها بالسيد وارين الى أبعد من ذلك، لم يكن عالم الثراء عالمها ولم تكن حريصة على أن تنتمي اليه، وقالت:

«انه لفضل كبير منك أن توجه اليّ الدعوة وأشعر بشيء من النكران اذ أخبرك انني مضطرة للرفض، ولكنك قد تقدر أننا، أمي وأنا، نعيش حياة هادئة للغاية، لم نعتد كل هذا النمط من الحياة... لقد استمتعت بمقابلتك للغاية وبدعوتك لي الى الطعام وبكل شيء.»

وابتسم ابتسامة لطيفة تدل على الفهم، وقال:

«ولكنك بهذا تكونين سندريلا التي تعترض!»

وأومأت وقالت:

«أرجو ألا تتضايق... كنت كريماً ورقيقاً معي... ووضعت يداً على ذراعها وقالت:

«أشكرك يا مستر وارين وأرجو أن...»

وتذكرت فجأة المرأة التي قتلت، وهي الحفيدة التي قال غراي لورنس ان بنيامين كان يحبها، وواصلت تقول:

«أرجو أن تسعد في حياتك.»

وأحست بانفعال جعلها تنحني وتقبل وجنته، وهمست:

«وداعاً.»

وغادرت قاعة الطعام.

كان غراي لورنس يقف خارج المحل والى جواره سيارة تكسي تنتظر ومحركها يدور، وفتح لها باب السيارة، وقال:

«الى اللقاء يا آنسة وارين، ليس لدي شك في أننا سوف نتقابل قريباً.»

ورفعت رأسها في ثقة تقول:

«ليرتح بالك! رفضت بحزم دعوة عمي الرقيقة لزيارته، وسيكون هذا لحسن الحظ لقاؤنا الوحيد.»

وصعدت الى التاكسي، وقالت:

«وداعاً يا سيد لورنس!»

واستدار السائق يسألها:

«الى أين يا آنسة؟»

وأعطته عنوان أحد مكاتب التأمين في المدينة وشق التاكسي طريقه بدون أن تنظر الى الوراء، وأحست بشيء من الأسف لأنها لن ترى عمها الكبير بنيامين مرة أخرى وان كانت قد أحست بارتياح كبير لابتعادها عن لورنس البغيض.

توقفت توني وهي في طريقها الى البيت لتشتري بعض الأزهار هدية لأمها، فقد ضاعت فرصة العمل ولم يعد هناك أمل من وراء المقابلة وخشيت أن تصاب أمها بشيء من الاحباط لتلك النهاية لأحلامها

وما كادت تفتح باب الشقة حتى أحست بأن هناك بعض التغيير.. كان وعاء الزهور يزخر بأعداد كبيرة من القرنفل الأحمر تحيط بها أوراق السرخس، وعبق جو الغرفة برائحة القرنفل وقد تخللتها بقايا من دخان السكاير، ولمحت على الطاولة الصغيرة المجاورة للمدفأة بقايا شاي قدم لشخصين.

وجاءت السيدة وارين من المطبخ وقد احمرت وجنتاها واتجهت اليها توني تعانقها، وتقدم اليها زهور شقائق النعمان التي أحضرتها وهي تقول:

«أحضرت لك هذه يا ماما ولكن يبدو أنه لا حاجة بك اليها.»

وأجابت أمها:

«أشكرك يا عزيزتي! انها جميلة للغاية.. سأذهب وأضعها في ماء...»

وسارت توني في اثرها الى المطبخ تقول:

«من كان عندك من الضيوف يا ماما؟ أعتقد أنني يمكن أن أحزر!»

وابتسمت السيدة وارين في سعادة قائلة:

«نعم تستطيعين أن تخمني يا عزيزتي، كان هنا السيد بنيامين وارين بنفسه،

وجاء في سيارة ليموزين. ولحسن الحظ كنت قد فرغت للتو من خبز الكعكات التي تفضلينها، وقد أحبها بنيامين... وطلب مني أن أناديه باسمه بلا ألقاب.»

وحملت المزهرية الى غرفة الجلوس ووضعتها على رف الموقد ووقفت تنظر اليها في اعجاب.

وغاصت توني في أحد الكراسي وقد بدا ان أحداث ذلك اليوم كانت فوق طاقتها، وقالت في وهن:

«لم يقل لي انه سيجيء لزيارتك!»

«لا، أعتقد أن الزيارة خطرت له فجأة، وأخبرني عن اصطحابه لك الى المطعم! انه معجب بك جداً يا توني وظل يردد لي اعجابه بك وكيف أنه مسرور لأنك قدمت نفسك اليه.»

وقالت توني في بطء:

«لم أفعل ذلك بالضبط يا ماما ـ انما أنت التي فعلت ذلك، وكنت أتمنى لو لم تكتبي تلك الرسالة وتسليمها اليه بدون أن تخبريني اذ وضعتني في موقف محرج تماماً.»

وتجاهلت السيدة وارين ذلك التأنيب فقد كانت في أوج سعادتها وقالت:

«انه ليس كما تصورته على الاطلاق... كنت أظنه رجلاً قاسياً متحجر القلب كرجال الأعمال ولكنه غير ذلك بالمرة... مهذب وساحر بل بالفعل يمثل الأصالة وكرم الاصل.»

وتنهدت في سعادة وواصلت تقول:

«تحدثنا في أشياء كثيرة ـ وكان شغوفاً بأن يعرف الكثير عن عمل أبيك، وطلب أن يعرف كل شيء عن حياتنا في الكوخ، وعندما أخبرته أن القسيس قبل عن طيب خاطر أن يخزن اللوحات تحت سطح المنزل قال أنه سيذهب الى ديفون في يوم من الأيام ليراها، أليس ذلك شيئاً لطيفاً؟»

وتمتمت توني:

«لطيف للغاية.»

وواصلت الأم تقول:

«وأخبرني بكل شيء عن أسرته وهو يعيش وحده الآن... أليس غريباً أنك تشبهين تماماً حفيدته؟ باشر تربيتها منذ كانت في سن الطفولة المبكرة عندما مات أبواها فقد راحا ضحية كتلة جليدية وهما يمارسان رياضة التزحلق في النمسا. وللأسف قتلت هذه الحفيدة في حادث اصطدام سيارة منذ عام أو عامين. يا لها من مأساة! هل تصدقين يا توني أنه يشعر أنك نعمة أرسلها له القدر لتحلي محلها!»

وانفجرت توني تقول:

«اسمعي يا أمي! أحس بأنك فرحة للغاية ولا أحب أن تشعري بالاحباط ولكنني أقول ان الموضوع لن يسير هكذا. أحببت السيد وارين فهو شخص رقيق للغاية ولكنني لا أريد أن تلتف حولي عصا سحرية لأتحول الى صورة أخرى. لا أريد أن أغير شيئاً ما في حياتي. انني سعيدة هنا معك، ولقد وفرت لنا بيتاً يحوطه الدفء، وسوف يزداد دخلي عما قريب ويكون لنا بيت صغير نمتلكه في النهاية. ولعلك تذكرين كيف كان أبي يقول: الاشياء التي يحصل عليها الانسان بالجهد هي الأشياء التي ينبغي أن يحرص على اقتنائها ـ ولذلك لم يقبل بتاتاً بأن يلجأ الى بنيامين وارين ليطلب منه المساعدة عندما طلبت اليه، بل أراد أن يعتمد على نفسه وألا يستند الى دعم أحد أقاربه الأثرياء. وهذا هو شعوري أنا تجاه هذا الموضوع.»

وتبع ذلك صمت طويل كانت السيدة وارين تحدق خلاله في توني وهي لا تكاد تصدق، وقد تدلت شفتاها الرقيقتان وقالت:

«ولكن لا يعقل أن تتجاهل تماماً ما حدث!»

ونظرت توني الى وجه أمها الذي اعتلته الدهشة، وأدركت ان أمها كانت كطفل يبني قصوراً في الهواء، وأنها تعاني تماماً كما يعاني الطفل عندما تنهار تلك الآمال، وأومأت في كآبة قائلة:

«أخشى أن هذا هو الذي سوف يحدث وهذا هو ما كان أبي يتمنى أن يراني ألتزم به. لو كان الأمر قاصراً على التحالي بعمل في الشركة لقبلته كما وعدتك ولكن

هذا التفكير الجديد شيء لا يحتمل النقاش فقد حقر الرجل الذي أجرى لي المقابلة من شأني تماماً...»

وانفعلت في شيء من الغضب عندما تذكرت كيف تمت المقابلة والطريقة المتغطرسة التي رفض بها طلبها، وأدركت أن وجه الشبه بينها وبين زوجته ربما كان وراء طريقته الفظة التي تصرف بها، ولكن ذلك لم يكن عذراً كافياً لما حدث، وواصلت تقول:

«وهكذا يا ماما اذا كان باستطاعتي أن أكسب معاشي من العمل في الشركة فما كنت أسمح بتاتاً بأن أعامل بشيء من التذليل لأن ذلك ما يحدث الآن أرجوك أن تفهمي!»

وأومأت السيدة وارين في بطء وقالت:

«انني أشعر تماماً بما تشعرين به يا توني! والواقع أنني لم أعش مع أبيك طوال تلك السنوات بدون أن أتعلم ما يعنيه الاستقلال.»

واستدارت لتكدس الأطباق فوق بعضها وأخذت تزيل بقايا الطعام بيد مهتزة من العصبية، وقالت:

«فقط أرجو أن تعرفي يا حبيبتي أن السيد وارين دعانا لقضاء عيد الميلاد معه في بيته بمقاطعة غلوشستر ولقد قبلت الدعوة، فماذا نقول له؟»

٣ ـ الظلام الدافىء

وخلال الأسابيع الباقية قبل عيد الميلاد ظلت توني تقنع نفسها بأن تقبل دعوة بنيامين لتظل اشراقة السعادة بادية على وجه أمها، واتخذت السيدة وارين خطوات عملية استعداداً للزيارة.

«إنك بحاجة لبعض الملابس الجديدة يا حبيبتي توني، قررت أن نقضي يوم السبت في المدينة لنشتري ما تريد بالنقود التي وفرناها لقضاء الاجازة في اسكتلندا.»

واعترضت توني بحجة أن لديها ملابس مناسبة، ولم يكن من السهل ان تعود السيدة وارين عن رأيها، وامضتا يوماً في السوق ورجعتا محملتين بصناديق ولفائف. وبينما كانت توني تعد الشاي قامت أمها بنشر الملابس الجديدة على السرير وعلى وجهها مشاعر البهجة والرضى.

ودخلت توني لترقب في انبهار، وقالت:

«إنها ملابس فاخرة، ولكن ماذا أفعل بها بعد عيد الميلاد؟ لن أستطيع أن ألبس رداء كهذا لأذهب به الى السينما أو حتى الى المطعم ثم ضحكت وقالت:

«وماذا عن رحلتنا الى اسكتلندا؟»

وابتسمت السيدة وارين ابتسامة غامضة وقالت:

«لا تشغلي بالك! وعيشي يومك فنحن لا نعرف ما يأتي به العام المقبل.»

«اسمعي يا ماما! اذا كنت تتخيلين أنني سأسمح لنفسي...»

ولكن الأم وضعت يدها على شفتيها وهي تقول:

«آه يا حبيبتي دعينا نتقبل الأمور كما تحدث... ذلك أفضل!»

ولم يكن بوسع توني أن تفعل شيئاً بعد ذلك كان هناك مرض منتشر بين الموظفين في المكتب، تطلب منها أن تعمل في الصباح وفي المساء ساعات اضافية. وكان الطقس مريعاً وانخفضت درجة الحرارة خلال أيام وهطلت الأمطار بدون توقف حتى ليلة عيد الميلاد، وكذبت بذلك جميع التنبؤات الجوية وساءت الحالة النفسية بسبب الظلام والمطر الذي استمر لأيام واكتظت الحافلات والقطارات بطوفان البشر الذي لا ينقطع.

وعملت توني طوال ليلة عيد الميلاد حتى لا تتبقى أوراق تحتاج الى النسخ. وغادرت المكتب في وقت متأخر تأمل أن تتفادى زحام وقت الذروة، ولكن الزحام كان كما هو وكانت الرحلة أكثر مللاً، ووصلت الى الشقة في النهاية وهي تأمل أن تقضي هي وأمها أجازة دافئة تقتصر عليهما، ولم تكن مرتاحة لفكرة السفر الى مكان تجهله في بيت غريب، وخطر لها أن تعتذر في آخر لحظة بمرض الأنفلونزا. وكانت ترتعد من البرد وهي تفتح الباب الخارجي للشقة.

وأطلت السيدة بلاث، مالكة البيت، من غرفتها في الدور الأرضي تقول:

«خرجت أمك، وتركت لك هذه الورقة.»

وفردت توني الورقة بأصابع مبتلة، وقرأت:

حبيبتي، تغيرت الخطة واضطررت الى أن أسبقك، كل شيء على ما يرام، وسأشرح لك عندما تلحقين بي. اتخذ بنيامين الترتيبات وسيمر عليك سائقه الخاص ليحضرك حوالي السادسة والنصف. كتبت لك هذا على عجل ـ أمك.

ملحوظة: لا تنسي أن تطفئي الشعلة الصغيرة لموقد البوتاغاز

كانت السيدة بلاث تنتظر في لهفة، وقالت:

«سوف تذهبين في القطار اذاً؟»

وبدا أنها كانت تعرف كل شيء، عن زيارة توني وأمها لأقاربها الأثرياء في غلوشستر.

واتجهت توني الى الدرج قائلة:

«أوه، لا، لاأعتقد...»

«هل سيرسلون سيارة اليك؟»

«نعم؛ أشكرك على اعطائي الرسالة يا سيدة بلاث، وصعدت الدرج وأغلقت الباب خلفها وأسندت ظهرها اليه.»

كانت الشقة رطبة وباردة، وأشعلت موقد الغاز وأرخت الستائر ووضعت وعاء أسفل المظلة التي تنضح بالماء، ونفضت سترتها ونشرتها على أحد الكراسي لتجف. كانت الساعة تشير الى السادسة وخمسة دقائق، وأدركت أن عليها أن تسرع بالاستعداد إذا ما كانت تعتزم الخروج مع ذلك السائق، وفكرت في مخاطر الرحلة الطويلة بالسيارة وحدها مع سائق لا تعرفه، ودخلت الى غرفة النوم لتغيّر ثيابها.

وخطر لها ـ هل تجد ماء ساخناً للحمام، وخلعت ملابس العمل وارتدت رداء خفيفاً وسارت حافية عبر الغرفة الى الحمام المشترك ووجدت المياه ساخنة أتاحت لها حماماً دافئاً.

وما أن خرجت من الحمام حتى سمعت جرس الباب الخارجي يدق من أسفل، وأطلت من النافذة فرأت سيارة طويلة أنيقة تقف الى جانب الحاجز الحجري عند حافة الطريق وانحنت على الدرابزين لتسمع صوت السيدة بلاث وصوت رجل يحييها وصاحت تسأل:

«هل هذا لي يا سيدة بلاث؟ أرجوك أن تجعليه ينتظر! سأكون جاهزة خلال دقائق.»

وسمعت صوت خطوات تصعد الدرج المغطى بالمشمع وتثب كل درجتين في خطوة، فاستدارت تعدو الى غرفتها، وانفرج دثارها الرقيق بينما كان غراي لورنس يدور مع الدرج ليواجهها، وتسمرت خطاها وحلقت تجاهه والحرارة تصطخب في وجهها وأحكمت الرداء حولها وأسرعت الى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها.

وعندما خرجت تلبس كان لا يزال يقف في كبرياء بقامته الفارعة عند الموقد يدلي يديه والتفت اليها وقال:

«هكذا يكون اللقاء يا أنطونيا؟»

كان قلبها ما زال يدق من صدمة اللقاء المفاجيء.. وقالت:

«ما كان ينبغي للسيدة بلاك أن تسمح لك بالصعود، انها لا تفعل ذلك عادة ولقد ظننت...»

«لا تعتذري بسبب ثيابك، فلقد امضيت عامين كاملين في لندن وهما يكفيان لتعديل مشاعر الخجل هذه.»

وقالت في اقتضاب:

«لا أعرف ماذا تعني؟»

كان يوماً مرهقاً للغاية حمل معه الكثير من الاحباط وأحست بأنها عاجزة عن أن تدخل في تراشق لفظي مع ذلك الرجل الذي يثير الغيظ وواصلت تقول:

«هل حضرت حقاً لتأخذني بالسيارة الى غلوشستر؟»

«نعم، ولقد حرصت على ذلك بعد وداعك الساحق الأخير.»

«يمكنك أن تتظاهر بأنك مسرور لرؤيتي من جديد.»

ولوى فمه، وقال:

«أنا لا أتظاهر ابداً، ولكنني أخضع لما لا يمكن تجنبه ومن ذلك دعوة بنيامين لك لزيارته.»

وامتد بصره الى الشقة والى السجادة الصغيرة البالية والستائر الرخيصة الزاهية الألوان والى المظلة التي يقطر ماؤها في الوعاء، وواصل يقول:

«ليس من التهذيب أن ترفضي الدعوة في مثل هذه الظروف.»

واحمرّ وجهها، وهي تقول:

«أراك تحاول اهانتي؟»

وارتفع حاجباه، وقال:

«أهينك؟ لماذا؟ انني فقط أحاول أن أكون واقعياً! تعلمت أن أقدر الحقيقة وأن أقولها وإن كنت لا أقولها كلها فليس هناك انسان يفعل ذلك وعلى الأقل فانني أتحدث بما في نفسي.»

وبدا الحديث مع ذلك الرجل شيئاً مستحيلاً، وجذبت سترتها من على ظهر الكرسي حيث كانت تجف أمام المدفأة ولكنه أمسك بها وهو يقول:

«اسمحي لي.»

وترددت لحظة ثم دفعت بذراعيها فيها، وخيّل اليها أن يديه استقرتا فوق ذراعيها أطول مما ينبغي، وسألها:

«هل حقائبك جاهزة لأحملها الى الطابق الأرضي؟»

«نعم أقصد لا... ما زال أمامي بعض الوقت، هل يضايقك أن تنتظر دقائق أخرى؟»

«كما تريدين، فقد يعطينا ذلك الفرصة لتتفادى زحمة المرور... »

ودخلت غرفة النوم وطوت فستان السهرة، وجمعت أدوات الزينة في حقيبة يدها وكان غراي لورنس قد تبعها ووقف يستند الى دعامة الباب يرقبها. وتجولت عيناه عبر الغرفة الصغيرة بستائرها المزركشة وفرش السرير والسجادة اليدوية على الأرض، وعلّق قائلاً:

«دافئة! ومن ينام على السرير المقابل؟»

«أمي»

«آه... كنت قد نسيت! انها في غلوشستر الآن.»

واستمرّ في التأمل كأنما خطرت له فكرة... وطال الصمت وأخذت تبحث في جيبة في احد الأدراج، وظل واقفاً عند المدخل ورفع رأسه يحدق في السقف، وقال:

«سوف يحتاج المرور الى بعض الوقت حتى تخف حدته»

وفطنت الى نواياه، فاستدارت تقول:

«اذاً لا داعي للانتظار.»

وعلق قائلاً:

«لست ساذجة رغم كل شيء.»

وقالت في غضب:

«إذن كنت تحاول أن تستكشف أي نوع من الفتيات أنا؟»

وسار عبر الغرفة تجاهها يبتسم قائلاً:

«لم أكن أعني بكلامي أن أغويك...»

وأغلقت حقيبة ملابسها في عصبية بأصابع مرتعشة، وهي تقول:

«انك انسان بغيض، بلا اخلاق... لا أريد أن أركب معك الى غلوشستر، تفضل وانصرف! سأجد طريقي بنفسي!»

ولكنه لم يتحرك، وقال:

«المكان على بعد أربعة أميال من أقرب محطة للسكك الحديدية. هذا إذا وجدت مكاناً في القطار، والمنزل جميل ولكنه في مكان منعزل...»

واستمر كأنه يحدث نفسه:

«إنه طريق طويل تحف به أشجار الليمون تنضح أغصانها بقطرات المطر فتتحول الطريق الى سلسلة من البرك الصغيرة... وهناك سيارة تاكسي وحيدة ولكنها تحجز في ليلة عيد الميلاد...»

واستدار الى الباب قائلاً:

«سأخبر أمك أنك ستلحقين بنا فيما بعد، ولديك العنوان بالطبع...»

لم يكن معها عنوان، وحاولت أن تتذكر اسم المنزل الذي تتجه اليه. وتذكرت أنه يحمل في مقطع منه لفظة الأبيض الغالون الأبيض الدير الأبيض ولم تستطع أن تتذكر الاسم بالضبط.. بل لم تستطع حتى أن تتذكر اسم القرية.

وأحست بركبتيها ترتخيان فجأة وجلست على حافة الفراش وقد حنت رأسها لتخبيء الدموع التي انسابت من عينيها، وحاولت أن تقاوم واستطاعت للحظة أن ترفع رأسها بينما وقف غراي لورنس ينظر اليها بامعان وقال:

«يبدو عليك الانهاك... متى أكلت لآخر مرة؟»

«لا أستطيع أن أتذكر»

ثم أضافت:

«انني بخير...»

وحاولت أن تنهض ولكن خانتها رجلاها، وقال في حزم:

«أنت لست بخير لا أريد أن يغمى عليك أثناء الرحلة.»

«لا بد أن تأكلي شيئاً.»

«لن أذهب معك...»

«سوف تذهبين! ارتاحي هنا حتى أجد شيئاً تأكلينه من خزانة الطعام.»

ولم يضع وقتاً فرفعها من حافة السرير ووضعها في وسطه وغطى ساقيها بلحاف، وتوقف عند الباب ينظر حوله ويقول:

«لا تقلقي! انني لا أستغل فرصة ضعف امرأة!»

وخرج الى المطبخ الصغير بينما اضطجعت هي وأغلقت عينيها، وتذكرت أنه قال انه يلتزم بالصدق ووثقت به رغم أنها كانت تكرهه، وكان الانهاك قد بلغ منها مبلغاً جعلها تعجز عن تحليل مشاعرها.

ودهشت اذ وجدته يعود في لحظات قليلة ومعه فنجانان من القهوة الساخنة وكومة من شطائر الجبن، وقال:

«لا أستحق ثناء، فقد كان شيء معداً من قبل.»

جلست تقضم احدى شطائر الجبن وقد أضيفت اليها صلصة ذات نكهة مميزة اعدتها السيدة وارين.»

وأكلت ثلاثة من الشطائر وشربت فنجان القهوة، وأرخت رأسها الى الخلف، وتنهدت تقول:

«انني أحسن حالاً الآن! كنت جائعة حقاً. ألا تأخذ شطيرة؟»

ومدت طبق الشطائر تجاهه...

وهز رأسه قائلاً:

«لا، شكراً، أكلت على الطائرة.»

«الطائرة؟»

«نعم حضرت للتو من رحلة الى باريس بعد أسبوعين أنجزت فيهما بعض مسائل العمل لفرعنا هناك.»

وأزاحت توني اللحاف، ونهضت عن السرير، وكانت لا تزال تلبس بذلتها المصنوعة من التويد، ونظرت الى حالة ملابسها، وحاولت أن تسويها في قلق وتقدم غراي خطوتين عبر الغرفة، وقال في حزم:

«لا تفعلي ذلك! انك تبدين وثيقة الشبه بـ ميدج... كانت تفعل هي ايضاً ذلك... هل نخرج الآن؟»

وحمل حقائبها وهو يقول:

«هل من شيء تعمله قبل أن نخرج؟»

وأجابته:

«انني جاهزة.»

ولاح لها أنه كان يبدي تلك الكراهية تجاهها لأنها كانت تذكره بميدج وبكل شيء فقده... ودخلت غرفة الجلوس، وأطفأت نار الموقد والمصباح ونظرت لتطمئن الى أن كل شيء في موضعه وتبعته تهبط الدرج.

كانت السيارة طويلة وفاخرة، وفتح لها الباب ووضع حقائبها في الخلف ثم جلس الى عجلة القيادة، وحاولت توني أن تثبت حزام الأمان حول وسطها فأخفقت، وقال لها:

«أتركيني أثبته حولك.»

ومال تجاهها ليثبت الحزام وأحسّت بالهلع وأسرع نبضها، ولكن لم تتلكأ يداه هذه المرة، وقال:

«مضبوط! حسناً! سوف نرجع الى المدينة اذ عليّ زيارة المصنع أولاً وبعدها نأخذ الطريق العمومي.»

لم تكن توني قد ركبت من قبل سيارة شبيهة بتلك السيارة التي أخذت تنساب في شوارع ضواحي لندن، وفكرت أنها كان يمكن أن تستمتع بتلك الرحلة لو كان الوقت مختلفاً وفي صحبة أخرى.

ورفعت بصرها تجاهه، كان يبدو متغطرساً ساخراً يبعث الرهبة فيمن ينظر اليه، له جاذبية رجل قوي، وتخيّلت كم من النساء الثريات جذبتهن تلك

المغناطيسية. ولم تكن لتحسدهن على ذلك فقد كان حلمها بالحب شيئاً يختلف تماماً... كانت تحلم بفلاح أو مزارع فواكه له شعر أشقر وعينان زرقاوان وفم يبتسم دائماً... شخص مثل أدريان الذي رحل الى أستراليا مع أسرته... كان الشاب الوحيد في حياتها لسنوات طويلة وعندما رحل أحسّت بشيء من انكسار القلب وان كانت القلوب لا تتكسر في سن السابعة عشرة... ولم يكن هناك منذ ذلك الوقت شخص لمس قلبها. كان أدريان يرعى الغنم وكتب لها مرة أو اثنتين وأرسل لها صورة فوتوغرافية له وهو يمسك بحصان أسود رشيق، كان يبدو في الصورة شاباً كادحاً وكانت تحلم باليوم الذي يبعث لها فيه كي تلحق به وتتزوجه ولكن أباها مرض وأمها تكدح طوال النهار في أحواض الخضر بالحديقة والى منتصف الليل على ماكينة الخياطة والتطريز لتكسب خبزهم. وحتى لو أرسل اليها أدريان فما كانت تستطيع الذهاب.

وانقطعت الرسائل بعد فترة، وتسلمت أمها في السنة الماضية رسالة من والدة أدريان تخبرها فيها بزواجه، وحزنت توني وأحسّت بالضياع نسيت الموضوع ولكن صورة أدريان بقيت بشكل غريب أمير الأحلام...

وألقى غراي لورنس عليها نظرة سريعة قائلاً:

«انت بخير؟ لن يغمى عليك من جديد؟»

واستجمعت قواها، وقالت:

«بخير تام، أشكرك!»

وبدأت السيارة تشق طريقها في الشوارع الضيقة خلف طريق الكنيسة البيضاء، ثم توقفت أمام باب خشبي قديم لا يحمل أية علامة مميزة، وقال غراي:

«ينبغي أن تأتي معي... لا أستطيع أن أتركك وحدك!»

وقالت في سذاجة:

«لماذا؟»

وأجاب:

«يمكن أن تحدث أحداث غريبة للسيارة في مثل هذا المكان.»

«ولكن اذا كان هناك شخص ما بالسيارة فان شيئاً لن يحدث...»
ونظر اليها نظرة عابسة، وقال:
«اذا كان من ينتظر بالسيارة مثلك فمن المؤكد أن يقع ما أخشاه...هيا»
وهزت كتفيها، وأطاعت، وأحكم اغلاق السيارة وسار أمامها وصعد درجاً قديماً الى غرفة كبيرة بالية وتبعته توني وهي تنظر حولها في اهتمام... اذاً هذا هو المصنع الخاص بشركة واربنز. المكان الذي صنعت فيه الدبابيس اللامعة والخواتم التي رأتها في بوند ستريت. وفي ضوء المصباح الوحيد رأت الأرض الخشبية العارية وصفاً من المناضد على ثلاثة جوانب من الغرفة كل منها ينعزل عن الآخر بواسطة حواجز، أما على الجانب الرابع من الحجرة فكان هناك معدات أثقل، ضخمة، وغامضة تقبع في الظلال. وتحت الضوء جلس الشخص الوحيد الذي يشغل الغرفة ونهض فور دخولها. كان متوسط العمر يميل الى السمنة له شعر خفيف يلبس مريلة بيضاء سميكة.
وعبر غراي الغرفة تجاهه قائلاً:
«أهلاً يا جو... آمل ألا أكون حرمتك من المشاركة في تزيين شجرة عيد الميلاد لأطفالك»
«أهلاً سيد غراي... إنني أترك هذا اللهو لزوجتي، وكان لا بد أن أنهي كل شيء. اتصل بي السيد بنيامين وأخبرني أنك آت لتأخذ معك بعض الانتاج.»
وفتح درجاً وناول غراي طرداً صغيراً وضعه بعناية في جيبه الداخلي وسأل جو قائلاً:
«ألم يقل السيد بنيامين شيئاً عن سبب رغبته في هذه القطعة الثمينة في البيت؟»
«لم يذكر يا سيد غراي.»
ونظر جو عبر كتفي غراي الى حيث كانت توني تقف وقال:
«استميحك عذراً يا آنسة! فالواقع أنني لم أرك»
ونظر غراي حوله وقال:

«نسيت أن أقدمكما... أنطونيا! هذا هو جو لايتمر الذي يعرف كل شيء عن أسرار صناعة المجوهرات والذي له الفضل في أن تقف شركة وارينز على قدميها. وهذه هي الآنسة وارين يا جو حفيدة أخ السيد بنيامين وهي تمضي عيد الميلاد معنا.»
ومدت توني يدها لتصافح جو الذي كان يبدو حرفياً من الطراز الأول.
وأخذ جو لايتمر يدها وهو لا يصدق عينيه والتفت الى غراي قائلاً:
«لا أكاد أصدق يا سيد غراي انها تبدو كما لو كانت...»
«كما لو كانت زوجتي عادت الى الحياة! نعم يا جو! أعرف ذلك.»
وارتبك جو قائلاً:
«آسف يا سيد غراي... لم يكن لباقة مني أن أقول ذلك، ولكنني أخذت بالمفاجأة... آسف»
«لا تشغل بالك يا جو شعرنا جميعاً بالاحساس نفسه ولكننا بدأنا نعتاد عليه... أليس كذلك يا أنطونيا؟»
كانت نظرته اليها خبيثة الى حدٍ ما ولم تجب واتجهت الى منضدة العمل أسفل المصباح الوحيد حيث جلس جو، تدقق النظر في الطاولات الصغيرة وفي الأدوات التي تتدلى من الرفوف المثبتة على الحواجز.. مطارق ومبارد ومناشر ومطارق خشبية وأشياء أخرى... كان كل شيء بحجم صغير. وقالت:
«انه شيء يبهر البصر! وهل كل الاشياء الجميلة التي رأيتها في بوند ستريت صنعت هنا؟»
وأجاب جو:
«كلها صنعت هنا يا آنسة... صنعناها بأنفسنا... ما عدا الساعات فهي تأتي من سويسرا... هل تريدين القاء نظرة على هذه يا آنسة وارين؟ لقد وصلتنا اليوم فقط.»
ولكن غراي تقدم الى دائرة الضوء حول المنضدة، وقال:
«آسف يا جو لنؤجل ذلك الى زيارة ثانية فأمامنا رحلة طويلة.»

وأسرع جو يقول:

«طبعاً يا سيد غراي، لم أنتبه لذلك وربما أحضرت الآنسة وارين مرة أخرى، هذا اذا كنت تحبين أن تري ما نصنعه هنا يا آنسة؟»

«الواقع أنني أحب ذلك بالفعل.»

وغادرا لندن سالكين الطريق العمومي للسيارات، وقد ركز غراي اهتمامه على القيادة. وكان المرور في ليلة عيد الميلاد مزدحماً والمطر ينهمر.

وجلست توني على مقعدها في السيارة في استرخاء كامل. ربما كانت تود أن تسأل عن طول الرحلة وعن الزمن الذي قد تستغرقه ولكن الرجل لم يكن يظهر اى رغبة في الكلام. وركزت بصرها على الطريق وكانت أضواء السيارات المقبلة من الاتجاه المضاد تخطف البصر لحظة ثم تختفي، واستسلمت للنوم، وعندما فتحت عينيها وجدت أنهما كانا قد تركا طريق السيارات، وأخذا يقودان في بطء أكثر على طول طريق ضيق يهبط ويرتفع ويدور ويتلوى. وجلست تجيل النظر..

وجاء صوت غراي عبر الظلام الذي يغلفها يقول:

«هل نمت جيداً؟»

وقالت في تثاقل:

«نعم، أشكرك»

وسألها قائلاً:

«ما الذي كنت تفعلينه في الأيام الأخيرة مما أضعف صحتك الى هذا الحد؟ هل كنت تأرقين طوال الليل؟»

وأجابته في حيرة:

«تلميحاتك غير موفقة يا سيد لورنس إذا كنت حقاً تريد أن تعرف كنت مرهقة طوال الأسبوعين الماضيين بعد أن تغيب نصف الموظفين بسبب الأنفلونزا...»

ووقفت السيارة فجأة بصوت يدل على أنها غاصت في الماء واصطدمت توني بحزام الأمان من أثر الوقوف المفاجىء وسمعت غراي يدمدم قائلاً:

«يا للعنة! كان ينبغي أن أعمل حساباً لهذا...»

وانتصبت في جلستها وأخذت تحدق الى الأمام، كان الجو شديد القتامة وأدركت أن الأضواء الأمامية للسيارة أطفئت ونظرت خلال النوافذ الجانبية، ورأت السيارة محاطة بالماء من كل جانب والى جانبها كان غراي يتحرك في عصبية قائلاً:

«هذا الشارع اللعين، سبق أن اغرقته المياه من قبل، كيف لم أنتبه لذلك؟!»

وقررت أن تثأر لنفسها فقالت:

«كنت مشغولاً بمضايقتي ولم تنتبه للقيادة؟»

وسمعته ينشق نفساً عميقاً ويقول في مرارة:

«يا إلهي ان طريقتك في الحديث تشبه طريقتها تماماً.. أخشى أن أنسى في يوم من الأيام أنني لست زوجك!»

وأحست بأنه من الخطورة أن تدخل في مبارزة لفظية مع رجل مثل غراي لورنس. وحاولت أن تبتعد عنه في الظلام بأقصى ما تستطيع وأحست بحزام الأمان يضغط عليها، وقال لها في صوت جاف:

«لاتقلقي فالمكان والزمان ليسا ملائمين.»

واسترخت بعض الشيء وسمعته يقهقه في الظلام قائلاً:

«انك لا تثقين بي! هل تثقين بي فعلاً؟»

وأجابت على عجل:

«وهل أنت جدير بالثقة؟»

وقال في اقتضاب:

«من المحتمل أنني لست كذلك.»

وأدركت أنه يتحسس جيبه وقال لها:

«سيكارة؟»

«لا! شكراً، لا أدخن»

وأحاطت بها سحابة من الدخان حاول أن يزيحها بيده قائلاً: «آسف، انها عادة

سيئة، ولكنني أحتاج اليها في بعض الأحيان.»

وصار يدخن لدقيقة أو دقيقتين، ثم قال في حدة:

«والآن الى العمل. لنستطلع ما قد يصير اليه حالنا؟ إنظري في درج القفازات أعتقد هناك مصباح ببطارية هناك.»

ووجدته وناولته اياه، وأخذت تنتظر بينما أخذ ينظر الى التابلوه وأدار المفاتيح الضوئية دونما استجابة.

وفتح الباب المجاور له وأطل الى الخارج. كان هناك صوت متدفق أسفل السيارة وأغلق الباب بعنف وقال:

«الأمل ضعيف تسرب الماء الى المحرك وأعتقد أن الدائرة الكهربية تعطلت تماماً.»

«وأين نحن الآن؟ ما طول المسافة بيننا وبين منزل العم بنيامين؟»

«حوالي ميلين. ونحن الآن في شارع يمتد صعداً الى الطرق البيضاء والى عدد من الأكواخ الخشبية ومن غير المحتمل أن ترى أية سيارة بهذا الطريق في ليلة مثل هذه لأن الناس على الأغلب يعرفون أن النهر يفيض ويبقون في بيوتهم.»

«لكن ـ ألا يخطر للعم بنيامين أن سيارتنا قد تجتح؟»

«من المحتمل أن يخطر له ذلك آخر الأمر.. وسوف تصل جماعة الانقاذ، طال بنا الوقت أم قصر ولكن قد يتأخر ذلك. قطعنا المسافة من لندن الى هنا في وقت قصير ولا أعتقد أنه خطر لهم أن يفكروا فينا بعد، واذا لم نستطع أن نخرج أنفسنا بأنفسنا فسيكون علينا ان نجلس ونرتعش في ليلة عيد الميلاد.»

«أليس بامكاننا أن نخرج ونسير ما بقي من الطريق؟»

«نسير؟ وهل أنت مستعدة للسير مسافة ميلين في ليلة مثل هذه؟ أعتقد أن أفضل شيء هو أن أتركك هنا وأسير أنا الى المنزل ثم أحضر معي سيارة من هناك لآخذك وسأعود في أقل من ساعة.»

وقالت:

«اتفقنا...»

«لا يعقل أن أجعلك تتكبدين السير وتتعرضين للبلل وللاصابة بالالتهاب

الرئوي. وما دمت لا ترغبين في البقاء وحدك فسوف نبقى معاً وكأطفال القلعة سوف نوفر لأنفسنا الراحة بأقصى ما يمكن.»

وانحنى الى الخلف، وجذب سجادة سميكة ناعمة عن المقعد الخلفي غطى بها سالي توني وساقيه وحل حزام الأمان واقترب منها وأحكم السجادة حولها ثم مد ذراعه وأطفأ مصباح البطارية واحتواهما الظلام من جديد.

وأحست بصوته يأتي من مكان ما فوق رأسها يسألها:

«هل تشعرين بالراحة؟»

وأخذ قلبها يخفق وجف فمها ولم تستطع أن تحر جواباً وأومأت برأسها في الظلام علامة الموافقة، وقال في لهجة حازمة:

«حسناً... والآن يمكنك أن تنامي من جديد فقد نضطر الى الانتظار بعض الوقت قبل أن يرسلوا من يبحث عنا، ولا أحب أن أسترسل في أحاديث تافهة.»

كيف تنام وجسمها يتصلب في شعور لم تعهده من قبل؟ مجرد تواجدها مع شخص غريب في تجاور مكاني وفي تلك الظروف ربما لا يسبب له أي ارتباك ولكنه يؤثر فيها بطريقة لا تطاق. وجلست متصلبة تضغط نفسها بأقصى ما تستطيع على المساحة المخصصة لها من الكرسي وأنفاسها تلهث في غير انتظام. لم تكن تعرف كم من الوقت تستطيع أن تجلس هكذا. ولكنه بعد دقائق قليلة تحرك ـ قائلاً:

«ماذا جرى لك يا فتاتي؟ اهدأي. ألا تستطيعين ذلك؟ أنا لست انساناً فاسقاً. أنا مثلك تماماً غير راض عن الوضع الذي نحن فيه ولكننا سنظل حبيسين حتى يلوح شخص ينقذنا. علينا أن نتقبل وضعنا وأؤكد لك أنني أسيطر تماماً على نزعاتي الفطرية في الوقت الحاضر.»

وانكمشت في مقعدها، وحاولت أن تريح رأسها في جهته ثم حولته الى جهة أخرى، ووجدت أن رأسها يميل الى الاسترخاء في تثاقل قلق. أسندته الى افريز النافذة. ولكن ذلك كان أسوأ حالاً اذ كان رابداً وصلباً. ولم يبد غراي حراكاً خلال ذلك. وأحست باشعاع دفئه ومست يدها قماش سترته الناعم وكان كتفه

محاذياً لوجنتها، وخطر لها حسناً ولم لا؟ وتركت رأسها يميل تجاهه، وقال في صوت يعبر عن الأمر الواقع:

«هكذا أكثر تعقلاً؛ والآن استغرقي في نومك من جديد.انك فتاة مطيعة.»

وأحست بالدفء وبالنعاس وأغلقت عينيها، واستغرقت في حالة بين اليقظة والنوم، في منتهى السعادة بدرجة لم تألفها.

ولم تدر كم من الوقت مر عليها ـ خمس دقائق أم خمس ساعات ـ بعد ذلك عندما أيقظها صوت غراي وهو يقول:

«ها نحن أخيراً، وصل فريق الانقاذ.»

وفتحت توني عينيها ورفعت رأسها لتجد أضواء مبهرة تتجه مباشرة الى السيارة التي يقبعان فيها وكان غراي لا يزال يحيطها بذراعه يمسك بها في قوة، وانحنى ليفتح النافذة المجاورة لها وهو يقول:

«من أنتم؟»

وجاءه صوت من السيارة الأخرى التي وقفت على حافة مياه الفيضان يرد قائلاً:

«هذا أنا يا غراي؛ أنا دومينيك، هل بامكانك أن تخرج فتخوض في الماء أم نجر سيارتك؟»

«انتظر! سأكون عندك...»

وانتصب غراي في مقعده وتمتم في لهجة ساخرة يوجه الكلام الى توني:

«انك في أمان تام الآن يا عزيزتي.»

٤ ـ الهدية

وقالت السيدة وارين وهي ترفع صينية العشاء لتضعها على خزانة الملابس:

«أحسست بالقلق تماماً عليك يا حبيبتي برغم أن بنيامين أكد لي أنك كنت في مأمن تام مع السيد لورنس، واقترح هذا الشاب الصغير دومينيك أن يخرج ليستطلع أخباركما ـ هل أحضر لك مزيداً من الطعام؟»

كانتا تجلسان في غرفة النوم المخصصة لتوني بعد أن صمم العم بنيامين على أن تأوي الى الفراش وكان قد رحب بها قائلاً:

«يبدو عليك أثر الارهاق يا أنطونيا... اخلدي الى الراحة لتتمكني من المشاركة في الاحتفالات غداً.»

وشكرته توني وكان آخر ما يخطر لها أن تجد نفسها في صحبة غراي لورنس بعد ذلك، فلقد لقيت منه ما يكفي... منذ أن صعد الدرج وكاد يصطدم بها وهي تلبس رداء الحمام الرقيق منذ أربع ساعات فقط بدت كأربعة أيام حافلة بالأحداث... ولكن كان عليها أن تنسى ذلك.

والتفتت الى أمها التي كانت تعلق ملابسها في الخزانة المبنية في الحائط تقول:

«ضعيني في الصورة يا أمي... هل هناك آخرون يعيشون هنا؟ ومن هو دومينيك هذا الذي خرج يبحث عنا؟»

كان غراي قد فتح باب السيارة وخاض الى ركبتيه في الماء ثم انحنى وحملها بعيداً عن البلل ثم ركبا سيارة لاندروفر نقلتهما الى البيت، ولم يكن

هناك مجال عندئذ للتعارف وبعدها عاد الرجلان الى السيارة المحاصرة.

وقالت أمها:

«لايوجد سوانا يا عزيزتي... لكننا سنكون ستة أشخاص على العشاء غداً. بنيامين وأنت وأنا والسيد لورنس و دومينيك فنش وأخته آن. ودومينيك هو مدير المزرعة ويسكن مع أخته في الأكواخ القريبة، لم أقابل أخته بعد وهي تعمل معلمة في المدرسة القريبة، انه شخص جذاب يذكرني بشخص عرفته يوماً ما لا أتذكر اسمه الآن»

وابتسمت توني اذ لم تضيع أمها وقتاً في التعرف الى الموجودين وتمنت لو كانت لها القدرة نفسها على كسب الصداقات، وسألت في لهجة رقيقة:

«ولكن لماذا تعجلت الحضور وتركتيني هكذا؟»

«انني آسفة!حدث كل شيء، عفواً... سافر بنيامين هذا الصباح الى برمنغهام وترك لسكرتيرته السيدة جينز تدبير الأمر واتصلت بي جينز هذا الصباح لتخبرني أن مدبرة المنزل نقلت الى المستشفى لاجراء عملية عاجلة، واستأذنتني في الحضور مبكرة بعض الشيء لأعنى بشؤون المنزل لأن الخادمتين الصغيرتين جديدتان لم تتدربا على العمل وطمأنتني السكرتيرة الى أن السائق سيحضرك في تمام السادسة والنصف ويبدو أنني لم أسمع جيداً لأن السائق كان مع بنيامين... آسفة يا عزيزتي فقد سببت لك بعض العناء.»

«لا داعي للأسف... فقط كنت مشغولة، وانتظرت السائق ولكن جاءني ذلك السيد لورنس!»

ونظرت اليها أمها نظرة حادة، وسألتها:

«ما الخبر يا عزيزتي؟ ألا تحبين السيد لورنس؟»

«لا! لا أحبه... انه أبغض رجل رأيته.»

وانحنت السيدة وارين، وأخذت تربت على ابنتها في استرخاء :

«لا تتسرعي في الحكم يا عزيزتي! حدثني بنيامين عن السيد لورنس... كان زوج حفيدته... التي قتلت في ذلك الحادث و...»

«أعرف! شبيهتي على ما يبدو ان كل من يعرفها لا يصدق عينيه عندما يراني،

أحس لو كنت شبحاً...»

وبدت الدهشة على السيدة وارين، وقالت:

«لم أكن أعرف ذلك، ولعله يفسر، من الواضح أن لورنس كان يحب زوجته بدرجة كبيرة، ولقد تغير بعد وفاتها، كان فيا قبل شخصاً ايجابياً، كما يقول بنيامين، ولكنه الآن صار شخصاً معقداً وساخراً بل وعصبياً، هذا يقلق بنيامين كثيراً وخاصة انه يعتمد عليه في العمل بعد أن أحس بالكبر ويريد أن تمضي الأمور في يسر.»

نهضت وقالت:

«والآن، نامي واستريحي ليكون يومنا غداً يوماً بهيجاً.»

وتنهدت جذلة، وقالت:

«تخيلي أننا نمضي عيد الميلاد في منزل جميل كهذا... أحب أن تتجولي في أرجائه.»

وانحنت وقبلتها قائلة:

«أسعدت مساء يا حبيبتي، أحس أن فصلاً جديداً يبدأ في حياتنا.»

وابتسمت أمها وانصرفت.

وجلست توني في الفراش واستندت الى غطاء الوسادة المطرز، وأخذ بصرها يتجول في الغرفة بامعان، غرفة صغيرة مؤثثة أثاثاً بسيطاً، ولكن كل شيء كان ينبيء بالثراء، جدران خضراء تتناغم مع ستائر مزخرفة وفرش سرير يزدان بنقوش زهور البنفسج والسوسن والخشب الذي صنع منه المكتب وخزانة الملابس والأبواب المنزلقة والسقف المرتفع والسجاد الفخم على الأرضية. ووقع بصرها على وعاء البسكوت المصنوع من الخزف النفيس على النضد الجانبي وعلى الترموس بجانبه وعلى كومة المجلات الصقيلة والمزهرية البيضاء الصغيرة المزدانة بنتوءات صغيرة...

لم يكن قد مضى على وجود أمها في المكان الا ساعات قليلة ومع ذلك حدث تغيير كبير في سلوكها وبدت عليها مظاهر الثقة بالنفس في شيء من الابتهاج، وكانت تتصرف كأنها المضيفة وأنها اعتادت هذا النمط من الحياة المترفة طوال حياتها، وخشيت توني ألا ترضى أمها بعد ذلك بحياتها في مسكنها المتواضع

يحي هورنس. وتنهدت وحاولت أن تنسى، كانت منهكة تماماً، وأطفأت المصباح، وسكنت الى الفراش الوثير، واستغرقت في النوم خلال لحظات، واستيقظت لترى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تميل الى الطول قليلة الخبرة، تلبس مريلة زرقاء من النايلون، كانت ترفع الستائر، وتسللت شمس الشتاء الباهتة الى الغرفة من خلال أغصان شجرة جرداء خارج النافذة، ونظرت بعينين طارفتين ودفعت بشعرها الذهبي الى مؤخرة عنقها وجلست وقالت:

«أهلاً! من أنت؟»

واستدارت الفتاة في ابتسامة عريضة، وقالت:

«أنا شيرلي، أحضرت لك الفطور وتعتذر السيدة واربن عن عدم مجيئها الآن فهي تحشو الديك الرومي وتنتظرك عندما تكملين استعدادك ولكن لا تتعجلي»

واتجهت شيرلي الى الباب بعد أن أبلغت الرسالة، ثم توقفت لتقول:

«أتمنى أن يكون لشعري لون شعرك، إنك تشبهين الصورة الفوتوغرافية التي في غرفة الجلوس، وكنت أظن أن المصوّر أعطى الشعر ذلك اللون ولكني أراه الآن بعيني لوناً طبيعياً.»

وخرجت وأغلقت الباب خلفها.

كانت صينية الأفطار على الطاولة المجاورة للسرير ورفعتها توني على ركبتيها، وأحست بشيء من الارتياح عندما رأت ألوان الطعام، كمية كبيرة من التوست، وشرائح من الزبدة الطبيعية، بيضة كبيرة مقلية وطبق من المربى ثبتت عليه بطاقة كتب عليها:

عيد ميلاد سعيد يا حبيبتي، أخلص التمنيات طوال العمر كانت البطاقة بخط أمها، وابتسمت توني، وسكبت لنفسها بعض القهوة... لتستمتع بأيام قليلة من السعادة ما دامت قد وافقت على الحضور، ولكنها ينبغي أن تتجنب غراي لورنس قدر ما تستطيع لتوفر لكليهما الهدوء. عندما توصلت الى هذا القرار الحكيم اطمأنت، وبدأت تتناول طعام الفطور في رضى كامل.

وبعد أن أفرغت آخر نقطة من القهوة نهضت لتنظر من النافذة، لم تكن قد

تعرفت على المنزل في الليلة الماضية وكان انطباعها أنه منزل دافئ، مريح تتوهج في ردهته نار المدفأة حيث كان بنيامين يجلس في الليلة السابقة على كرسي مزين بقماش قطني مطبوع، وأخذت تنظر الآن الى المرج الأخضر الممتد، وأحواض الزهور الجرداء التي تنتظر فصل الربيع وتبيّنت أن مبنى الطرق البيضاء، كان أحد المنازل القديمة في غلوشستر، قرأت عنه في يوم من الأيام في المجلات، يرجع تاريخه الى أيام كانت تجارة الصوف تتركز في تلك المنطقة حيث تربى أغنام كوتزولد بكثرة على المزارع الممتدة، وبدت بعض الأغنام تنتشر على التلال الممتدة وراء الحديقة وظنت أن تلك كانت المزرعة التي تحدثت عنها أمها في الليلة السابقة والتي يديرها الشاب الذي أسرع لنجدتهم دومينيك وسوف تتناول العشاء معه وأخته في ذلك المساء، وخطر لها أنه شيء جميل أن يتواجد أناس كثيرون لتتخذ منهم عازلاً بينها وبين لورنس، وانصرف بصرها عن المنظر الممتد خارج النافذة للحظة، ورأت من جديد شبح غراي لورنس بقامته الفارغة وبشخصيته الساخرة المتسكعة تنظران في عينيها في تحدٍ وكبرياء... وأحسّت برعشة بسيطة، واتجهت الى الحمام الملحق بغرفتها.

واتجهت الى الطابق الأرضي بعد ذلك بنصف ساعة ترتدي فستانها الجديد بلون القرفة الغامق والذي يَنسجم تماماً مع لون شعرها، وعندما وصلت الى الدرج السفلي للسلم العريض المصنوع من خشب البلوط توقفت لتتفحص الردهة السفلية، وأدركت أن المنزل كان يشبه احدى الصور التي تعرضها المجلات المصقولة، لم تكن الردهة ضخمة ولكن بدا كل شيء كأنه أكمل ما يكون من نوعه، وأحسّت بأنها بحاجة الى أن تعرف شيئاً عن تاريخ صناعة الأثاث. وسمعت صوتاً يقول:

«أهلاً، لا بد أنك أنطونيا»

واستدارت لترى شاباً يقف عند المدخل خلفها يبتسم، كان أشقر البشرة يلبس بنطلون ركوب الخيل وسويتر من الصوف، وواصل يقول:

«إنك تبدين كأنك لوحة زيتية، إهبطي الدرج واتيحي لي الفرصة لأقدم نفسي، لقد تقابلنا في الليلة الماضية ولكن في غمرة الفيضان وكنت في حالة سيئة.»

وهبطت ما بقي من الدرج ومدت يدها تصافحه، وقال:

«أنا دومينيك فنش، فلاح وجنتلمان...»

وأمسك يدها بكلتا يديه ونظر في حدة الى وجهها وهز رأسه في عجب:

«أخبروني أنك صورة طبق الأصل عن المسكينة ميدج... ولكن يا للـه! هذا شيء سخيف... لا تشغلك تلك الفكرة فانك شيء آخر.»

وردت له الابتسامة، وعرفت من هو الشخص الذي كانت أمها تعتقد أنه شبيهه... كان من نفس طراز أدريان الذي رحل الى أستراليا. وأحست نحوه بعاطفة، وقالت:

«أشكرك على هذه الكلمات اللطيفة، انني أشعر بالضيق عندما يحدق في كل شخص كما لو كان رأى شبحاً...»

وواصل يقول:

«أنت لست شبحاً.»

وأطلق يدها على كره منه، وقال:

«هل احتملت مغامرة الليلة السابقة؟ قال غراي انكما بقيتما هناك حوالي ساعة أو أكثر قبل أن أحضر لنجدتكما.»

وأحست بحرارة تسري في وجنتيها عندما تذكرت ما حدث على مرأى منه، وقالت:

«حقاً! لا أستطيع أن أقتر الوقت فلقد فضلت أن أنام حتى تصل النجدة.»

وعلق قائلاً:

«كان ذلك خيراً... فلقد خذلت غراي... وهو يستحق ذلك... انه يعتقد أن إغراءه للنساء لا يقاوم.»

وسألته:

«وماذا حدث للسيارة؟»

«ما زالت هناك في حدود معلوماتي، كان من العبث أن نحاول سحبها في الظلام ولذلك اكتفينا باخطار الشرطة بمكانها، وقد وضعت عدداً من الفوانيس الحمراء على الطريق، يا لسوء حظ غراي! فالسيارة جديدة لم يمض على شرائها أشهر قليلة

ولا بد أنه قد تأثر كثيراً.

وابتسم للمرة الثانية ابتسامة عريضة، وأحست بشيء من الحقد في صوته وهو يواصل:

«ومع ذلك فهو الذي خاض بها في الماء... انه لا يلوم الا نفسه»

وحول الحديث قائلاً:

«اذن حضرت لتمضية عيد الميلاد في هذا المستنقع؟ لم يكن على لسان بنيامين سواك خلال الأسبوعين الماضيين، انه يحب العائلة بطبعه لكنه ظل يعيش وحيداً حتى ظهرت حادثة ميدج حطمت قلبه لفترة طويلة.»

«هل كنت تعرفها؟»

«بالطبع، كل منا كان يعرفها، كانت سيدة بالفعل.»

وأرادت توني أن تعرف المزيد عن ابنة العم فقالت:

«كانت حادثة سيارة، وكانت تقود بنفسها؟»

وأومأ دومينيك:

«نعم!»

وسمع صوت حاد ينادي اسمه من أعلى الدرج، فنظرا الى أعلى ورأيا غراي بوجهه القاتم هناك، وأحست توني بشيء من الارتباك، ولكن دومينيك ابتسم قائلاً:

«أهلاً... أيتها الشمس المشرقة. عيد ميلاد سعيد.»

وهبط غراي الدرج تجاههما، ووقف ينظر اليهما في برود ثم ركز بصره على دومينيك يقول:

«أين كنت؟ بنيامين ينتظر أن تقدم اليه التقرير.»

وارتفع حاجبا دومينيك في حركة مضحكة، وقال:

«يا عزيزي! يا عزيزي! هل أنا حيوان مربوط؟ الأفضل أن أصعد لألوذ بالأمان، سأراك فيما بعد يا حبيبتي.»

ولمس كتف توني في خفة، وصعد الدرج مسرعاً، ووقف غراي هناك ينظر الى توني في صمت، ولما لم تستطع احتمال الموقف لفترة أطول، قالت:

«عيد ميلاد سعيد يا سيد لورنس.»

ودهشت إذ رأته يبتسم ابتسامة حقيقية دونما سخرية وخمنت أنها لا بد أن تكون بركة عيد الميلاد، وقال:

«وعيد ميلاد سعيد لك يا أنطونيا. هل تحسنت بعد محنة الأمس؟»

«ن... نعم... أشكرك... لم تكن محنة حقيقية فلقد تم انقاذنا في وقت قصير.»

«قصير جداً بالنسبة اليك؟ هل كنت تودين أن يطول ذلك الموقف الشاعري؟ قد نكرر المشهد يوماً ما بشرط ألا تغرق سيارتي أثناء ذلك.»

وتجاهلت طريقته الساخرة، وقالت:

«أسفة لما حدث للسيارة، وأمل ألا يكون التلف كبيراً.»

وهز كتفيه، قائلاً:

«أعتقد أنها ستبقى صالحة للعمل.»

وحاول أن يغير مجرى الحديث، قائلاً:

«أخشى أن أكون قد قطعت حديثاً ودياً بينك وبين الصديق دومينيك. لقد تصادقتما سريعاً.»

واحمرت وجنتاها خشية أن يكون قد سمع ما دار بينهما من حديث أو على الأقل الجزء الأخير منه، وقال:

«نعم سمعت بالفعل ما تتحدثان عنه ولا ألومك بالطبع ولكنني أكون ممتناً اذا سألتني أي سؤال تودين عن المرحومة زوجتي.»

وأحست بأنه صفعها على وجهها ولم يعطها الفرصة لتجيب، وقال في أدب:

«هل قام أحد بتعريفك بالمنزل؟»

وأجابت:

«لا ليس بعد. نزلت منذ وقت قصير بعد أن تناولت فطوري في الفراش، لم أتعود مثل هذا الترف.»

«سوف تتعودين على كل شيء في وقت قصير. بأي شيء تبدأ؟»

كانت تود أن تقول: من أي مكان، بعيداً عن تلميحاتك الفظيعة الساخرة ولكنها قالت:

«عرفت أن أمي مشغولة في المطبخ وبوسعي أن أساعدها ولكنني لا أعرف أين المطبخ؟»

«لا تشغلي نفسك بذلك؛ فان زيك لا يناسب العمل أمام الموقد الساخن، انه زي جميل...»

واضاف في ابتسامة ساخرة:

«المظاهر خادعة حقاً.»

وأحست توني بأنه ضايقها بما فيه الكفاية، واعتراها الغضب قائلة:

«اسمع يا سيد لورنس! ربما كانت لديك أسباب تجعلك تعاملني بهذه الطريقة، ربما تجد سروراً في أن تهاجمني وتهينني، ولكنني غير راضية على الاطلاق عن ذلك.»

ورفع حاجبيه قائلاً:

«أهينك؟ انك تسيئين الظن بي... إنني لا أحاول بتاتاً أن أهينك. أرجو ألا تكوني تعنين بذلك انك لا تعرفين قواعد اللعبة؟»

«أي لعبة؟»

«هناك لعبة واحدة يمكن أن تكون بين أي رجل وفتاة.»

«حسناً... انني لا أعرف قواعد اللعبة، وفي قرارة نفسي انا فتاة ريفية ألم أقل لك ذلك؟ بل انني لا أريد أن أتعلم تلك القواعد.»

وابتسم وهو لا يكاد يصدق، وقال:

«ولكن لا تنتظري مني أن أصدق ذلك، ليس من فتاة مثلك!»

وردت عليه في تحد:

«وأي فتاة أنا؟»

وتغيرت ملامح وجهه فجأة بطريقة مخيفة، وذهبت السخرية الرقيقة لتحل محلها الصلابة وقال:

«انك تتعلمين سريعاً يا آنسة أنطونيا وارين، هيا سأطوف بك في البيت.»

وأمسك بمرفقها، وقادها عبر الردهة، وظلت للحظة تفكر كيف تجذب ذراعها بعيداً، ولكن أصابعه كانت كالفولاذ من خلال نسيج كمها.

كانت رحلة التعريف بالبيت شيئاً مخيفاً، فقد أخذ يفتح الأبواب المؤدية من الردهة واحداً بعد الآخر، ويقول:

«هذه هي غرفة المكتب يستخدمها بنيامين كمكتب وخلوة، أما هذا الباب فيفتح على غرفة الصباح ووراءها المستنبت الزجاجي، وهذه غرفة الطعام، أما هذه الردهة فتؤدي الى المطاعم والى غرفة التقطير.»

وحاولت أن تخفف الجو فقالت:

«أشعر بأنني احترت تماماً، بيتنا في ديفون بأجمعه يوازي غرفة واحدة من هذه الغرف.»

وفتح الباب الأخير، وقال:

«وهذه هي غرفة الجلوس.»

ووقفت تتفحص الغرفة الطويلة الفاخرة بأبوابها العريضة، وهنا كان الثراء الحقيقي يتمثل في السجادة والستائر والكراسي والأرائك، وفوق النوافذ الطويلة كانت نافذة مروحية غطيت بزجاج ملون بالألوان اللآلىء الغامقة وكانت هنالك مناضد جانبية مطعمة بدقة وخزانات ذات واجهات مقوسة لها أبواب زجاجية تسمح برؤية التحف من الفضة والصيني. كانت هناك تحفة كريستال تتدلى من السقف تتلألأ كأنها خيوط العنكبوت طعمت بقطرات الندى، وشدها صوت غراي لورنس الجاف الى الأرض من جديد وهو يقول:

«حسناً؟»

وعلقت في تعجب:

«انها أجمل غرفة رأيتها في حياتي، لا يمكن الجلوس فيها بالتأكيد، أقصد ليس في مثل هذا اليوم أو العصر، انها معرض يكفي منه المشاهدة.»

ورفع حاجبيه القاتمين، وقال:

«هناك البعض ممن لا يأخذونها هكذا... بل يعتبرونها جزءاً متمماً لشخصيتهم، ومرآة يرون فيها جمالهم الشخصي.»

وتقدم عبر الغرفة الى المدفأة العالية المصنوعة من المرمر وأمسك بصورة فوتوغرافية داخل برواز من الفضة، وقال في حدة:

«ها أنت هنا... والآن هل تفهمين لماذا أثار ظهورك ما أثاره من انطباعات؟»

وأخذت منه الصورة، وأمسكت بها بين يدين ترتعدان... وحدقت فيها وأحست باحساس غريب وهي تتفحص وجه المرأة التي ظن أن بينها وجه شبه كبير. الشعر الأحمر الذهبي البراق والبشرة الشقراء، القوام، وما تبقى... وهزت رأسها، وأعادت الصورة الى غراي قائلة:

«لا أنكر وجه الشبه بالطبع! ولكنني لا أظن أنه يستحق تلك الاثارة، ان لها جمالاً حقيقياً لا يوجد لديّ.»

وأعاد البرواز الفضي الى المدفأة وقال:

«انك لا ترينه لأنك معتادة عليه، ترينه في المرآة، ولكن هل خطر لك أنك لا ترين نفسك أبداً كما يراك الآخرون؟ وانك ترين نفسك فيما يسمونه قلب الصورة أما اذا وضعت صورتك الى جوار هذه الصورة فسوف تقدرين ما أقول.»

«هذا شيء فوق طاقتي. ومع ذلك أظن أنني لست على هذه الدرجة من الشبه بـ... ميلج.»

وعندما استدارت وجدت أمها عند المدخل وقد علاها شيء من الخجل والسعادة، كانت تحمل بعض الأغصان الخضراء، وقالت:

« توني... حبيبتي...أنت هنا؟ كنت أبحث عنك؟ عيد ميلاد سعيد ولك يا سيد لورنس.»

وواصلت تقول:

«طلبت الى البستاني أن يقطع هذه الأغصان، ولا أستطيع أن أدخل بها حتى لا يتساقط منها شيء على السجادة الجميلة.في الردهة لأننا سنتناول عشاءنا هناك.»

فجأة قال غراي:

«آسف، أنا مضطر للاستئذان.»

وأومأ لها وانصرف من الغرفة.

وتنهدت السيدة وارين في سعادة وقالت:

«انه رجل يثير الاهتمام!»

وانفجرت توني تقول:

«أراك مستعدة لامتداح الشيطان لو كان مقيماً في قصر الطرق البيضاء وألقت بحملها من الأغصان على أرض الردهة وقالت:

«ها هي يا عزيزتي. اذا جئت معي الى المطبخ أريك مكان السلم، وتستطيعين أن تضعي بعض الأغصان حول الدرابزين. أنا واثقة أنك ستضعينها بطريقة جميلة.»

واتجهت الى المطبخ، وتبعتها توني شاردة بفكرها ـ لولا ذلك الموقف السخيف من غراي لورنس لاستمتعت حقاً باقامتها في تلك الفترة ولكنها كانت تحس بالتوتر وبخوف لا تعرف مصدره كما لو كانت حياتها تتسرب رغماً عنها.

وتخلصت من بعض قلقها وهي تزين الردهة وألقت بكتلة خشبية في النار واختلط عطر خشب شجر التفاح بأريج خشب الصنوبر، كانت الردهة هادئة الا من قرقعة الكتل الخشبية في الموقد تقطع الصمت بين حين وآخر، وصارت تقطع وتقص الأغصان وتصعد وتهبط على السلم تضعها حيثما استطاعت. خلف قرون الوعل والسيوف القديمة المعلقة في أغمادها المصقولة بين أعمدة الدرابزين المنقوشة تتدلى من البهو فوقها بحبال وتضع اكليلاً جميلاً للساعة الأثرية العالية.

ووجدت باقة من نبات طفيلي يقال له الهذل تحت كومة من الأغصان فأمسكت بها في حيرة، وعند ذاك جاء دومينيك فنش يهبط الدرج مسرعاً وأخذ يحدق في أعجاب، وقال:

«جميل للغاية. أصبح القصر ينتمي الى عصر ديكنز أين تضعين هذه الباقة الجميلة؟»

وأخذ منها باقة الهذل ورفعها الى أعلى كأنه يستطلع المكان المناسب لها، وقالت:

«ليس لها موضع هنا، سأخذها الى المطبخ.»

وبدا على وجهه الهلع وقال:

«كيف؟ هذه خسارة كبيرة، ينبغي أن نحافظ على التقاليد.»

وقبل أن تدرك توني ما كان يحدث، أمسك بالباقة عالياً وعانقها.

وفي تلك اللحظة بالذات انفتح الباب الخارجي، ودخل لورنس الى الردهة، ولم يبد على دومينيك أي ارتباك بل ألقى بالتحية وهو يقول:

«اننا نجرّب باقة الهذل انها ممتازة.»

وقدم الباقة الى غراي في خبث قائلاً:

«جربها بنفسك!»

ونظر غراي اليه نظرة صاعقة قائلاً:

«يكفيني ما قلته فيها.»

قالها باقتضاب، وسار عبر الردهة.«هيه! أين ذهبت عنك بركة عيد الميلاد يا زميل السلاح؟»

كانت أمامك الفرصة في السيارة ليلة أمس... من المؤسف أنني حضرت على عجل اذ ذاك!»

وبلغ غراي باب غرفة المكتب والتفت ينظر اليهما وهما يقفان ملتصقين بينما أخذ دومينيك يلوح بباقة الهذل بطريقة عارضة بيده اليسرى ودخل غراي الغرفة وأغلقها وهو يقول:

«اذهبا الى الجحيم.»

ونظر دومينيك الى توني وقد ارتفع حاجباه الأشقران، وقال:

«انك ساحرة! ولقد مسه الشيطان!»

وألقى بباقة الهذل على المنضدة، وقال:

«لا أود أن أتركك، ولكن لدي مهر ينبغي أن أعنى به... ولدي أعمال أخرى، وسوف نلتقي في المساء مرة أخرى وسأحضر شقيقتي معي وأريد أن تقابليها، وأثق في أنكما ستتعارفان، هل تعرفين الوقت المحدد للاحتفال؟»

«قالت أمي أنه حوالي السادسة والنصف، أي مبكر قليلاً، ولكنها تريد أن تتيح للخادمتين وقتاً للتنظيف لتعودا الى القرية في وقت مناسب.»

وابتسمت تواصل:

«انها ولدت لتكون مديرة، أقصد أمي، فهي تحرص على المسائل الصغيرة مثل هذه... وطالما أن مديرة المنزل في المستشفى فانها تعنى بكل شيء في المطبخ، وهي

تحب ذلك.»

وأومأ دومينيك، وقال:

«من حسن الحظ أنها هنا والا لحرمنا فرحة مائدة عيد الميلاد.. تضايق بنيامين كثيراً عندما حملت السيدة باتسون الى المستشفى، وسعد كثيراً عندما وافقت أمك أن تقوم مقامها، لقد قابلتها مساء الأمس لفترة قصيرة وشعرت بأن لديها مقدرة كبيرة وهي لطيفة للغاية.»

وابتسمت توني لاطرائه، وقالت:

«إنها طاهية من الدرجة الأولى كذلك.»

ولعق شفتيه وقال:

«لا أستطيع أن أنتظر حتى يحين موعد نصيبي من الديك الرومي... أراك حوالي السادسة يا عزيزتي.»

وصارت ترقبه وهو يسير عبر الردهة بخطوة الرشيق المتبختر وتذكرت أدريان للمرة الثانية... لم يكن بينهما وجه شبه كبير ولكن كان لهما خفة الدم والمرح نفسهما ورأت فيه ترياقاً يشفي ما يحدثه غراي لورنس.

وهبط بنيامين الدرج بينما شرعت توني تزيح باقة الهدل خلف غصن من نبات الايلكس بأطرافه الشائكة وزهرة الضارب الى البياض كان يزين ساعة الحائط وسمعت وقع خطاه والتفتت لتجده يقف خلفها يرقبها في سرور باد.

كان يلبس سترة من القطيفة الفرنسية والمونوكل يتدلى من شريط حول عنقه. أما شعره الأبيض وذقنه فكانا يدلان على الأناقة، وبدا لتوني أكثر مهابة، واتجهت اليه في شيء من الاستحياء لتقدم له التهنئة بعيد الميلاد. وقال:

«وعيد ميلاد أكثر سعادة لك أنت أيضاً يا عزيزتي...»

وعانقها وهو يقول:

«اصفحي عن رجل عجوز يبدو عليه الكسل ويمضي فترة الصباح في فراشه هل تحسين بالراحة بعد ذلك العناء وبعد حادث السيارة المؤسف في الليلة الفائتة؟»

وأكدت له توني أنها بحالة طيبة هذا الصباح، وأشار الى الردهة، وقال:

«وهل هذا من صنعك؟ انها مفاجأة سارة للغاية بالنسبة اليّ، أن أجد هذا المنظر الجميل في استقبالي، لقد مضى زمن طويل لم يسعد الحظ منزلنا بمثل ذلك المظهر في عيد الميلاد منذ أن كانت زوجتي معي. ومضى على ذلك أكثر من عشرين سنة كان من عادتها أن تحضر الأغصان الخضراء من الحديقة وتعلق الأكاليل كما فعلت، وكانت تقول ـ انها تحاول أن تجعل المكان يبدو كمسرح لترنيمة عيد الميلاد.»

واغرورقت عيناه ثم عادت اليه الابتسامة وقال:

«لكن ينبغي ألا أحزن. لقد منّ الله عليّ بهدية غالية لم أكن أتوقعها فحضرت أنت وأمك هنا...بل كان هناك منة اضافية لأن أمك تقبلت عن طيب خاطر مسؤولية المطبخ.»

«أو... انها تحب الطهو وتستمتع بكل لحظة في هذا العمل.»

«وآمل أن تكوني أنت أيضاً تستمتعين باقامتك معنا هنا.»

«نعم... أوه... نعم بالطبع أستمتع.»

قالتها وان كانت لم تستطع أن تواجه عينيه.

وعلق في هدوء:

«ولكن... بدون تحفظات؟»

وابتسمت بسرعة، وقالت:

«أوه، لا تشغل بالك... كل شيء على ما يرام.»

«ألا تريدين أن تخبريني؟»

ووضعت يداً على وجنتها، وقالت:

«انه أمر تافه وأعتقد أنني قد أكون مخطئة، ان السيد لورنس لا يكاد يغفر لي أنني أذكره...»

وتوقفت بعدما تذكرت أن بنيامين أيضاً يحبّ ميدج وان كان يستمتع بتذكره لأوجه الشبه ولا يثور بسببه كما كان يفعل غراي.

وأومأ بنيامين:

«فكرت في أن هذه هي المشكلة... ولكن لا تشغلي بالك كثيراً يا طفلتي العزيزة

فأنا أعرف غراي كأنه ابني، انه رجل قوي وانفعالاته قوية كذلك وقد يبدو قاسياً ومريراً في بعض الأحيان. ان ما عاناه غراي جعله يتخاصم مع الحياة بعض الوقت ولكنه سوف يجد نفسه حتماً في يوم من الأيام وانني على ثقة من أنك ستجدينه يتحسن مع مرور الوقت.»

وأومأت في تشكك فقد بدا غراي لها شخصاً لا يمكن أن يلين وقالت:

«سأحاول أن أتجاهله عندما يثير غضبي وسوف أحتمل فهي على كل حال فترة قصيرة ولن أضطر لرؤيته على الأغلب بعد عطلة عيد الميلاد.»

كان بنيامين ينظر اليها في دهشة وكان على وشك ان يقول شيئاً ولكنه غيّر رأيه، وقالت توني على عجل:

«أعتقد أنه يسكن في لندن ليكون قريباً من العمل!»

كانت تحس احساساً غريباً أن بنيامين كاد يقترح اقتراحاً يحملها فيه التزاماً لم تكن تريد أن تتحمله.

وجلس بنيامين في أحد الكراسي الوثيرة بالقرب من المدفأة بينما جلست توني في الكرسي المقابل له. وأومأ اليها وابتسم ابتسامة أحسّت معها أنها مصبر سعادة له، وردت له الابتسامة وهي تحس بدفء الحب يسري في عروقها.

وقال رداً على سؤالها:

«غراي؟ له شقة في لندن، ويسافر الى الخارج كثيراً ولكن اقامته لا زالت هنا في الطرق البيضاء. كان و ميدج يقطنان في الجناح الآخر من البيت وظلّ يقيم هنا بعد أن تركتنا، وقد شكرت له ذلك.»

ونظر حول الردهة والى البهو فوقها، وواصل يقول:

«هذا البيت اشتراه جدي وعشت هنا طيلة حياتي وفكرت في بيعه والانتقال الى مكان أصغر ولكن ذلك ليس أمراً سهلاً في مثل عمري، انه يزخر بالذكريات بالنسبة اليّ...»

وأومأت في تعاطف معه ورأته يتحسس أحد جيوبه الداخلية وقال:

«أرجو أن تقبلي هذه الهدية المتواضعة بمناسبة عيد الميلاد يا أنطونيا. انها قطعة صغيرة متواضعة، وظننت أنك قد لا ترضين عن أي شيء ملفت للنظر، وقد

صنعها لك جو لايتمر رئيس العمل بنفسه بعد أن حدثته عنك يا عزيزتي، وكان سعيداً للغاية بهذا التكليف.»

وأخذت اللفافة وفتحتها ووجدت داخلها صندوقاً صغيراً عليه حرف وفي ركن منه وفتحته ووجدت بداخله حلية من حجر الأوبال على سوار ذهبي دقيق.

ودهشت توني وقالت:

«أوه!»

وقد بهرها جمال لون الحجر الثمين، كان رائعاً في لون اللهب منطلقاً بلون أزرق غامق وكانت الحلية محاطة بسياج من الذهب يتمشى مع الشكل الطبيعي للحجر الثمين.

وقالت:

«انها أجمل هدية قدمت لي في حياتي، وبها تاريخ ميلادي كذلك؟ كيف عرفته؟»

ولمعت عينا بنيامين الرماديتان وهي، لما أنها ترى أباها جالساً أمامها، وقال:

«ان لي جواسيسي، العاشر من أكتوبر/تشرين اول اوك هامبتون أليس كذلك؟»

«لقد كلفت نفسك عناء البحث عني فقط لـ... لـ...»

وعاودت النظر الى الحلية المصنوعة من حجر الأوبال، وقالت:

«أشكرك... أشكرك كثيراً... يا عمي العزيز بنيامين.»

وقال معلقاً:

«ارتحت تماماً لأنك سررت بها.كنت أخشى ذلك الكبرياء العائلي فيك!»

وهزت رأسها ضاحكة، وقالت:

«أكون ساذجة اذا سمحت لكبريائي السخيف أن يحرمني من هدية مثل هذه. انني أتقبلها تعبيراً عن الأحترام والاجلال لروابطي العائلية.»

وقال بنيامين في رقة:

«لا، انما تعبيراً عن استحقاقك أنت لها.»

ورفع رأسه لينظر عبر كتفي توني، وقال:

«غراي... تعال وأنظر»

لم تكن توني قد عرفت أن غراي يقف هناك وأنه ربما سمع قسطاً من الحديث الذي دار بينها وبين عمها بنيامين، ووقف غراي خلف كرسيها ولكنها لم تنظر تجاهه. ولو رأت السخرية البادية على وجهه فلربما ضاع فرحها بالهدية.

واعادت الحلية بعناية الى صندوقها الجلدي ووضعتها على الطاولة الصغيرة بجانبها، كان بامكانه أن ينظر اليها اذا أراد ولكنها كانت تأمل ألا يفعل ذلك.

ورأت يديه تمتدان لتلتقطا الصندوق، وقال:

«انها قطعة صغيرة جميلة، كانت مارشا على صواب عندما اقترحت سواراً بدلاً من السلسلة، ورأيي أن يضع شيئاً مشابهاً لابنة السيدة ريفز سوف أتكلم مع مارشا في الموضوع.»

وأعاد الصندوق الى المنضدة وقال بطريقة عارضة:

«هل أعجبتك يا أنطونيا؟ إنك سعيدة الحظ.»

ونجحت في أن تحتفظ بصوتها هادئاً رغم أنها كانت تنفعل بالغضب:

«بالطبع أعجبتني... انني أحبها.»

كان تعليقه قد حول الهدية الشخصية الثمينة عن عمد إلى موضوع عمل يخلو من العاطفة. أما كلماته اليها التي حاول أن يلبسها نغمة الأبوة فكانت شبه اهانة، ثم من كانت مارشا تلك؟

لم يكن بنيامين على استعداد لمناقشة أي موضوع يتصل بالعمل وسأل غراي:

«ماذا تم في اختيار المشروبات الخاصة بالعشاء؟ هل اتخذت أية ترتيبات؟»

ووضح من تحويل الحديث أن بنيامين لم يكن غافلاً عن التيارات الخفية التي تدور بين غراي و توني، وواصل بنيامين حديثه قائلاً:

«ان هذه المناسبة يليق بها أفخر المشروبات، فلدينا ضيف خاص اليوم يا بني وينبغي أن نهيء لها وقتاً سعيداً حتى تشعر أنها في بيتها معنا.»

وأجاب غراي:

«بكل تأكيد»

ونظر غراي نحو بنيامين وقال:

«سأذهب وأطمئن بنفسي.»

وتركهما وانصرف. ونظرت توني بعينين طارفتين تجاه بنيامين، وقالت في استكانة:

«رأيت بنفسك، فالود مفقود تماماً بيننا.»

كان الرجل العجوز يمسح عدسة المونوكل على منديل من الحرير بلون الكريم.

وكان يعرف أنه لا يمكن أن يطمع في اجابة ودية من غراي. ولكنه مع ذلك لم يكن يفقد الأمل بل على العكس كان يبدو كأنه ينظر بعين الأمل الى شيء ما، وقال:

«الصداقة ليست المدخل الوحيد لتحقيق التجاوب بين الرجل والمرأة يكفي أن يكون هناك ثمة تجاوب بشكل ما كنقطة للبداية.»

واحتاجت الى لحظة أو لحظتين لكي تفهم ما يعنيه، انفجرت بعدها في قهقهة جامحة، غراي وهي... لو كانت تلك هي الطريقة التي يفكر بها بنيامين فانها تكون طريقة مفرطة في الخيال لا تستحق حتى أن تناقش.»

وكان الرجل العجوز يرقبها بعينين كانتا في يوم من الأيام صافيتين كعينيها، ولكن ما فقدتاه من الصفاء عبر السنين تم تعويضه بالحكمة والتعقل، والآن كان وهو ينظر الى توني يلقى التشجيع والتعزيز بما يراه.

٥ ـ الاصل والبديل

ودهشت تونى إذ رأت أنها تستمتع بعيد الميلا، وربما كان لعدم ظهور غراي أثناء وجبة الظهيرة داخل في ذلك، وقال بنيامين ان غراي ذهب ليقنع مسؤول الكراج المحلي بجر السيارة لأصلاحها، وعندما حانت الواحدة ظهرا، ظنوا أن الأمر احتاج الى وجوده هناك لفترة أطول. وقالت السيدة وارين: «هذه وجبة خفيفة حتى تظل الشهية مفتوحة لوجبة العشاء.»

أعدت شطائر باللحم والسلاطة وفطائر محشوة بمزيج مفروم، وجلس الثلاثة حول طاولة صغيرة. وأطلعت توني أمها على الحلية الأربال فأبدت السيدة وارين اعجابها الشديد. وكانت هي الأخرى حصلت على صندوق من علب الحلوى المستوردة من باريس وقدمت لبنيامين نيابة عنها وعن توني هدية تتمثل في نصف دزينة من مناديل اليد المصنوعة من الكتان الأصيل.

وبعد الغداء اقترح بنيامين أن يقوموا بجولة في المزرعة كان المطر قد توقف خلال الليل وكان الجوّ معتدلاً، ظهرت فيه بعض السحب وقال:

«هذه هي رياضتي اليومية، لن نسير طويلاً، ولكن بالقدر اللازم لصحتي انني أجد عالمي ينكمش باستمرار، ففي أيام جدي كانت المزرعة كبيرة نوعاً، والآن فان عملي في لندن يستغرق معظم وقتي، وقد بيعت معظم الأرض هنا لأشخاص يستطيعون أن يجعلوها تنتج أفضل بكثير مما أستطيع.

وداروا حول المرج حيث كانت الأغنام ترعى العشب، بين الأشجار الضخمة، وانتهوا عند الاسطبل ليروا المهر الجديد... كان يرقد متمددا على العشب الجاف في

منظر يستحوذ على الاعجاب وفي رضى كامل وبالقرب منه أمه بلونها الكستنائي الجميل تمضغ الطعام في هدوء. وعلق بنيامين عندما رأى توني وأمها تأخذهما النشوة بسبب المهر قائلاً:

«لم أستطع مقاومة الرغبة في الحفاظ على نسل كليمنتينا كانت فرس حفيدتي وأحببت لها الاستمرار، وكان من عادة ميدج وغراي أن يركبا الخيل كثيراً. وهذا هو حصان غراي لوسيفر... إنه حصان عنيد ولكن غراي لا يجد صعوبة في أن يسوسه.

وعندما اقتربوا من الحصان أدار رأسه واتسع ثقبا أنفه ورأت توني أنه بالفعل الحصان الذي يناسب غراي لورنس.

واتجه بنيامين ليختبر باب الاسطبل وليتأكد أن لوسيفر لن يستطيع أن يهجم عليهم، وصهل الحصان في غضب ، وابتسم بنيامين ساخرا يقول: «أحببت أن أطمئن فأنا لست فارساً. وماذا عنك يا أنطونيا؟ هل تركبين الخيل؟»

وأجابت :

«كنت أركب أحيانا فقد كانت لي صديقة في المدرسة شغوفة بركوب الخيل، وأصرّ أبوها على أن يدفع لي رسوم التدريب حتى أكون في صحبة دينيز وعندما تركنا المدرسة واصلت دينيز تعليمها في الجامعة وانقطعت الدروس.»

وأومأ قائلاً :

«ينبغي أن تتدربي من جديد، ستجدين في غراي مدرباً ممتازاً لن يتردد في اصطحابك معه في يوم ما.»

وخطر لتوني أنه يمزح، ونظرت اليه ولكنه لم يبد كذلك، وابتسمت أمها وقالت :

«ان توني تعشق ذلك! أليس كذلك يا توني؟»

واصطنعت توني صوتاً لا يعبر عن معنى، ثم اتجهت الى المهر ثانية لتلقي عليه نظرة أخرى.

وسمع صوت سيارة كان غراي نفسه يقودها الى الساحة الداخلية ونزل عن

مقعد القيادة واتجه ناحيتهم يقول:

«ها نحن على الطريق مرة أخرى، كل شي تخلّص من البلل و يسير على مايرام، ان دنكن ، عامل ممتاز ولكن السيدة دنكن غاضبة فقد أخرت زوجها عن عشاء عيد الميلاد.»

وتشبثت توني بباب الاسطبل فقد أثار ظهور ذلك الرجل المفاجىء قلقها واضطربت دقات قلبها، كان كل شيء هادئاً وآمناً في الساحة ولكنه ظهر ليدمر الهدوء بخشونته المثيرة للقلق.

وقال بنيامين :

«كنا نتفرج على الجياد ياغراي! وبالمناسبة فإن أنطونيا تركب الخيل ويسعدها أن تصحبها في نزهة على ظهر الفرس عندما تستعيد كليمنتينا صحتها من جديد. والتفت الرأس القاتم تجاهها يقول:

«صحيح يأأنطونيا؟ تسعدين بصحبتي؟»

وبدت كلماته غاية في المؤانسة، ولكنها أحست فيها بنغمة السخرية وعلقت:

«أكون في منتهى السعادة.»

وسار الجميع تجاه البيت ولزمت توني جوار بنيامين، وكانت تستطيع أن تسمع أمها خلفها تتحدث مع غراي الذي لم يبد اهتماما بحديثها.

كانت وجبة عشاء عيد الميلاد قد قاربت نهايتها، وتوردت وجنتا السيدة وارين حياء من الثناء الذي حظيت به لجهدها، حتى توني التي كانت تعرف جيدا مهارة أمها في الطهو أبدت استحسانها. كانت تجلس في موضع الشرف عن يمين بنيامين وزال عنها إنفعالها بالاضطراب من أثر الشراب الفاخر الذي قدمته شيرلي والفتاة الأخرى. كان كل شيء مفعماً بالسعادة وبروح الأسرة، لم يكن ثمة ضيوف يتكلفون أو خدم مائدة أوسقات يلتزمون بالرسميات ولم تكن هناك كذلك صنوف من أدوات المائدة تثير الأرتباك، مجرد عشاء عادي تتناوله أسرة عادية كان دومينيك يجلس الى جوارها وأخته أن تجلس أمامها. وهي فتاة جميلة سمراء ذات عينين جلاتين وكان هناك كذلك

غراي لورنس ولم تكن راغبة في أن تعتبره سوياً بأي معيار ولو كان بالامكان تجاهله لبدا كل شيء آخر ممتازا.

كانت توني تلبس فستان السهرة الأزرق بفتحة عنقه الواسعة وبأساوره المكشكشة المصنوعة من الجورجيت وقد ثبتت حلية الأوبال حول عنقها وأسندت ظهرها الى الكرسي تحاول أن تكسر ثمرة من ثمار الجوز، وجاءها صوت دومينيك الضاحك يقول:

«ليس هكذا! هذه هي الطريقة التي تتكسر بها...»

وجذب كرسيه الى جوارها وأخذ كسارة البندق وكسر الثمرة عند منتصفها.

وعلقت قائلة :

«ممتاز!»

وأخرجت المحتوى من أحد النصفين وقدمته اليه قائلة:

«لنتقاسم!»

وأخذ قطعة الجوز واستقرّت يده على يدها بعض الشيء وقال:

«أحب أن نتقاسم أكثر من ذلك ياعزيزتي!»

وابتسمت له قائلة:

«لا؟ حقيقة؟»

كان في عينيها أقرب شبهاً بأدريان له الروح نفسها التي تجعل للحياة نكهة المرح، ونظرت توني بالتقدير نحو أن التي كانت تقص على بنيامين أخبار مادة الفنون التي تدرسها كانت تبدو أكبر بكثير من دومينيك، في أواخر العقد الثالث من عمرها تقريبا، وقالت لدومينيك:

«أختك لطيفة للغاية.»

وألقى نظرة عبر المائدة، وقال:

«انها كذلك وهي أيضا طاهية ممتازة، وتعنى بي جداً.»

«هل تعيشان وحدكما؟»

«نعم! منذ وفاة أبوينا، لابد أن تأتي لتزوري كوخنا الصغير انه جميل على غير

عادة، وأعتقد أنه بني أصلاً للراعي عندما كانت هذه مزرعة بالفعل... وليست...»

ونظر الى بنيامين الذي كان لايزال يحادث آن، وواصل:

«حسنا... وليست ملهاة لأحد الأثرياء.»

«هل تظن أنها هكذا؟»

«وهل هي غير ذلك؟»

وواصل في صوت خفيض:

«من المفروض أنني مدير للمزرعة ولكن لايوجد مايستحق أن يدار، انني أتطلع أحيانا الى أن أؤدي عملاً يتناسب مع مقدرتي كرجل، شيء يرضيني حقا.»

«ولماذا لا تفعل؟»

«قد أفعل في يوم من الأيام عندما تخطب آن، اذ لا أستطيع أن أتركها وحدها...»

«ولكن ألا تستطيع أن تذهب معك؟ انها متمرسة. وتستطيع أن تجد عملاً في أي مكان.»

وزم شفتيه وهز رأسه قائلاً:

«المكان الذي أحلم به هو أستراليا. الأرض الواسعة الرحبة ولكن آن لا تريد أن تهاجر.»

وعلقت توني تقول:

«استراليا تجتذب الفلاحين، كان لي صديق ذهب ليعمل بالزراعة هناك.»

«ولم تذهبي معه؟»

وقالت في مرارة:

«لم يطلب مني!»

وعبّر دومينيك عن اشمئزازه قائلاً:

«إنه غبي! تبتشي ياحبيبتي! سأطلب منك أن تصحبيني عندما أفكر في الذهاب.»

«نعم... أفعل وأسجلها عليك!»

وضحكت، وعانقها عناقاً سريعاً مرحاً.

والتفت غراي الى السيدة وارين وقالت شيئاً، وطافت ببصرها حول المائدة، ثم نظرت الى بنيامين وقالت:

«أين تشرب القهوة يابنيامين؟»

«في غرفة المكتب إذا وافق الآخرون.»

وهمس دومينيك الى توني:

«الرجل العجوز لايرغب في أن يدخل الى غرفة الجلوس هذه الأيام كانت ميدج تحب أن تجلس هناك.»

ونهضت السيدة وارين، وجذب غراي الكرسي الذي كانت تجلس عليه الى الخلف وقالت:

«سنترككم أيها الرجال مع شرابكم بعض الوقت.»

واتجهت الى المطبخ لتعنى بصنع القهوة.

وصعدت آن مع توني الى غرفة نومها لتعنيا بمظهرهما وجلست آن على الكرسي القصير المستدير أمام التسريحة، وفتحت حقيبة يدها لتخرج المشط وتنهدت قائلة:

«كانت وجبة شهية... ان أمك طاهية ممتازة... وكانت بطلة إذ أنجزت كل هذا بعد أن نقلت آدا المسكينة المستشفى، وكان السيد وارين قلقا... ويرجع الفضل لأمك.»

وأخذت تمشط شعرها ثم التفتت الى توني التي كانت تجفف يديها وقالت:

«كيف يكون احساس الفتاة عندما تعرف فجأة أنها أصبحت وريثة من لاشيء.»

ورددت توني في دهشة:

«وريثة؟! من قال ذلك؟»

«أوه ياعزيزتي! هل أخطأت القول؟ فهمت مما قاله دومينيك أن كل شيء، تم ترتيبه، وأنك ستعيشين هنا. وفرحت للغاية وبدا لي الموضوع كأنه قصة خرافية قلما يحدث مثلها هذه الأيام. وانني أسفة اذ تكلمت قبل الاوان!»

واسترخت على الكرسي من جديد، وقالت توني:

«لاتتضايقي! كانت غلطة غير مقصودة، ولكنها صدمتني للحظة، وكما ترين فقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة حتى أنني نفسي أشعر بالحيرة. كنت دائما أستطيع أن أتحكم في شؤوني وأتخذ القرارات لنفسي وأجدني الآن غير واثقة من أي شيء.»

وأومأت آن في تعاطف، وقالت :

«أفهم! إنني كامرأة أتأثر باحساساتك، والآن قولي انك صفحت عن تدخلي في شؤونك، ولكي تبرهني على صفحك ستأتين وتشربين القهوة معي في يوم قريب قبل أن ترجعي الى لندن.»

وقالت توني :

«سأزورك بالتأكيد! ما الموعد الذي يناسبك؟»

«غدا؟ صباحا؟»

«حسنا، احرصي على الوفاء بالموعد.»

وأخذا يهبطان الدرج من جديد، ولم تكن توني تدري أنه مع شروق شمس اليوم التالي سيتغير خط حياتها كله.

كان الرجال قد جلسوا في حجرة المكتب عندما دخلتا وكانت مسز وارين تصب القهوة من براد كبير على نضد جانبي، وابتسم بنيامين لتوني عندما حملت له فنجان القهوة....وكان يقلب صفحات ألبوم يحوي بعض الصور.. أحضرته مسز وارين... وجلست توني على السجادة عند قدميه توضح له مناسبات الصور القديمة نوعا... وقد أخذت بعض الصور قبل مولدها وظهر أبوها في كثير من هذه الصور.

وشرب دومينيك القهوة ثم استأذن في الانصراف ليطمئن على المهر الجديد...

وجلست آن مع غراي على إحدى الأرائك في أسفل النافذة وقالت:

«أوه! هل لي أن أرافقك... لم أر المهر بعد.»

ونهض غراي ليصحبها، ونظر دومينيك الى توني يدعوها للذهاب معهم، ولكن بنيامين وضع احدى يديه عليها قائلاً:

«ستبقى أنطونيا في صحبة الرجل العجوز.. أليس كذلك يا أنطونيا؟»

وقالت على الفور:

«بالطبع، سأبقى معك.»

وجذبت السيدة وارين الحبل الحريري المتصل بالجرس تنادي شيرلي، وصحبتها ثانية الى المطبخ لتشرف على عملية التنظيف، وتنهد بنيامين يقول:

«أملك معجزة! وهي سعيدة تماماً بكل ماحولها.»

وأجابته:

«إنها بالفعل كذلك.»

«انا معجب بأمثالها، وأتعجب كيف يكون حال العالم بدونهن!»

وصمت بنيامين لحظة وحدق تجاه المدفأة وواصل يقول:

«أثبتت أنها الشخص العملي الذي حقق السعادة لي في يوم لن أنساه وآمل أن تطول أيام السعادة هذه بعد أن وجدت لنفسي أسرة من جديد.»

ورفع المونوكل عن عينيه وصار يلوح به الى الأمام والى الخلف وقال:

«انك تفهمين ماأحاول قوله، لقد دخلت حياتي، وأطلب اليك يا أنطونيا أن تبقي لاكزائر عابر ولكن كجزء لايتجزأ مني. أطلب اليك ألا تقطعي الصلة مرة أخرى بل أن تعززيها. هناك تفاصيل كثيرة تحتاج الى مناقشة. ولكنني أستجيب لكل ماتطلبينه اذا وافقت ولأملك الحق في كل شيء، وأود أن أوضح أنني لا أريد أن تخضعي لمشيئة أي شخص ولا أن تكوني بديلة. انني أطلبك لشخصك أنت وأحس بأنني أعرفك من قبل وأحبك. لن أحاول أن أؤثر عليك أو أقدم لك إغراء لأنني على ثقة أن فيك كبرياء أسرة وارين. كم تمنيت ألا يكون لي هذا الثراء حتى أكون أقرب اليك وأتمنى ألا تتركيني!»

كان ينحني الى الأمام في كرسيه وأحست بأنه كان يتطلع اليها في صبر وثبات وكانت تتوقع ذلك منه ولكن ليس بمثل هذه السرعة. وكان عليها أن تتخذ

القرار. كان اختياراً محدداً فمن ناحية المال والمركز والجاه كلها رهن اشارتها ومن ناحية الاستقلال الشخصي فشعورها بأن ما تملكه جاء بعرقها وعملها... وتذكرت تقدير السيدة بلاك لها وأنها من خلال عملها يمكن أن تصل الى مركز مرموق... سكرتيرة شخصية مثلاً وربما وظيفة أعلى. وتذكرت الأغنية:

والذي هو اعظم من ذلك انني وصلت اليه بنفسي؟

وواصل بنيامين يقول:

«انني لاأنتظر جواباً الآن، فقط فكري في الأمر»

وقالت وعيناها تغرورقان بالدموع:

«سوف أفعل! إنه عرض كريم، وإنها لحماقة مني ألا اقبله، ولكن....»

«لا أحب أن أسمعك تقولين ذلك»

ورفع يده ليقطع عليها الكلام ولأول مرة رأت الجانب الأخر من شخصيته، رأته كرجل أعمال حاذق يحسن ادارة المواقف كما تحدث عنه غراي لورنس «رجل أعمال ممتاز وشاعر بالفطرة».

ولكن لماذا غراي لورنس في تلك اللحظة بالذات؟ كان بنيامين لايزال ينظر اليها، ووضع يده على كتفها وقال:

«لا تشغلي بالك يا أطونيا! فكري بالأمر. ثم اعطني رأيك، وسأرحب به.»

وتوافد الآخرون وأصبح الحديث عاماً. وأحضر غراي آلة تسجيل وأدار سيمفونية موزارت المفضلة لدى بنيامين ، ثم اقترح احدى اللعبات المفضلة لديه كذلك وتبعتها أحاديث هادئة نجح غراي في أن يجعل بنيامين خلالها يحكي بعض القصص المضحكة عن أسفاره الى الأماكن البعيدة واستمتع بنيامين تماماً بالسهرة وعند الحادية عشرة نهض وأعلن أن موعد نومه قد فات وشكر الجميع على مؤانستهم له في عيد الميلاد.

وقالت السيدة وارين:

«سوف أصعد أنا ايضاً وأترك الشباب يواصلون مرحهم على طريقتهم.»

وابتسمت في سعادة للرجل العجوز مع تمنيات ليلة سعيدة، وخرجا سوياً

يتحدثان حديثاً ودياً.

وجلس غراي الى جوار أن على الأريكة وكانا قد قضيا معظم الأمسية هناك. ولاحظت توني من حين لآخر أنهما يتحدثان ويتبادلان النظرات ورأته يبتسم لأن وينحني تجاهها ويمدد ساقيه في استرخاء. وحولت نظرها بعيداً بعدما رأت كيف يسلك مع الفتاة التي يستلطفها ويعجب بها.

وجاء دومينيك ليجلس على ذراع كرسي توني ويقول:

«ماذا تفعل الآن؟ تنطلق في حفل صاخب؟»

وعبست شقيقته في وجهه وقالت:

«لا ... يانيكي! أمضينا عيد ميلاد هادىء. اجعله يستمر هكذا ولا تجعله يتحول الى صخب! هل توافقني ياغراي؟»

وابتسم غراي قائلاً:

«أوافقك تماماً... ولكن لنأخذ رأي أنطونيا! فهي ضيفة شرفنا!»

وساد الغرفة شيء من الصمت ثم ضحكت أن وقالت:

«أرى أن مزاجك يأخذ طابع السخرية ياغراي!»

وأحست توني أنه لم يكن يقصد مزاحاً على الاطلاق كانت كلماته إهانة مقصودة. كان يريد أن يجعلها تحس بأنها غريبة. ولم تستطع أن تحول بصرها بعيداً ازاء نظرته التي تتحداها، وثار الغضب في نفسها بشكل لم تحس به من قبل في حياتها وأرادت أن تعبر الغرفة لتصفعه ولتنتزع الابتسامة الساخرة من فمه... حتى تداعى خيالها....

وتحدثت، وخيّل اليها خلال ذلك أنها تسمع صوت شخص آخر يقول:

«أود أن أقول، انه لايهمني كثيرا أن ألقى الاحترام بوصفي ضيفة فربما يهمكم أن تعرفوا أن عمي بنيامين طلب اليّ أن أقيم في قصر الطرق البيضاء كجزء من أسرته ووافقت.»

ولم تتذكر توني وقع تلك الكلمات على الموجودين... كل ماتذكرته أن أن قبلتها وكانت فرحة... وأن دومينيك علق بملاحظة فكهة حول جعل المنزل

القديم يزهو بالضياء مرة أخرى أما غراي فلم تعرف ما علق به... اضطرها الى أن تعلق بطريقة فيها شيء من الدراما والتحدي.... لم تكن تعرف عن نفسها التهوّر ولكن ذلك الرجل استطاع أن يجعلها تخرج عن هدوئها وأن تقلب عالمها رأساً على عقب وحصلت على نصر صغير وأحست بالرضى لأنها سوف تفرض عليه وجودها هنا وأقنعت نفسها بأنها أصابته.

ولم يبد عليه أي تأثر ظاهري بالغضب، ونهض وسار الى الطاولة، وقال:

«هذا... يحتاج الى شراب... آن ، دومينيك ، لنشرب معا نخب أنطونيا!»

وملأ الكؤوس، ورفع كأسه وحذا الآخرون حذوه، وقال:

«في صحة الآنسة أنطونيا وارين وأسرة وارين!»

وعلقت أنطونيا قائلة:

«أشكركم، والآن أقترح أن تشرب نخباً في صحة بنيامين وارين وأكرم رجل عرفته.»

وشرب الجميع نخب بنيامين وارين، ووضعت آن كأسها وقالت في سرور كامل:

«حسنا، حسم الموضوع، وفرحتي لا تقدر يا أنطونيا! انني على ثقة أنك اتخذت القرار الصحيح، إنه يعني الكثير للسيد وارين العجوز، والجميل فعلاً أننا أصبحنا جيراناً.»

وابتسمت توني في مودة الى آن وخطر لها ـ لو أن غراي قبل الزواج من تلك الفتاة فانه يكون سعيد الحظ لأنها سوف تروضه.وقالت:

«أشكرك يا آن ، وأحب أن يناديني أصدقائي بأسم توني.»

وتدخل دومينيك يقول:

«اذن سأفعل يا توني... توني... نعم... انني أستلطف الاسم، ان له وقعاً... والآن فان مابقي من الليل لا يزال طويلاً وما زلت ألح في ان تقيم حفلاً بالمناسبة، مارأيكم؟»

وردت آن في تأكيد:

«أرحني من هذا ياأخي! فانني أشعر بالنعاس.»

وتخلى دومينيك عن الفكرة على مضض، وقال:

«حسنا! ستؤجل الاحتفال الى يوم آخر، ولعلك توافقين يا توني!»

واقترب منها يقول:

«مارأيك ان نتناول العشاء معاً هذا الأسبوع؟»

وقبل أن تجيب، تدخل غراي قائلاً:

«لا أستطيع تلبية هذه الدعوة...»

وهز دومينيك رأسه وبرزت ذقنه في تحد، وقال:

«لم أكن أدعوك ياصديقي.»

وبرزت العداوة بين الشابين بطريقة مكشوفة، وخشيت توني أن ينتهي يوم عيد الميلاد بمثل تلك النغمة، فابتسمت لدومينيك قائلة:

«أشكرك على دعوتي... وأتمنى أن أقبلها، ولكن هل لديك مانع في أن نؤجلها بضعة أيام، فهناك أشياء كثيرة يجب أن تتم، وسوف يكون بوسعي أن أراك من وقت لآخر، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد ستريتني! حسنا! لننصرف الآن يا آن!»

وفتح غراي الباب الأمامي لها وقالت آن :

«سأراك صباح الغد اذاً ياتوني، حوالي الحادية عشرة، ولكن اذا لم تستطيعي أن تحضري فانني أقدر الظروف، وكوخنا قريب بعد المرج عبر الحديقة الخلفية وهناك تمثال تنين من الحجر على المدخل.»

ووضعت ذراعها الخلفية في ذراع أخيها، وقالا ـ ليلة سعيدة عندما وصلا الى أسفل الدرج اختفيا في الظلام.

ورجعت توني على أمل أن ينصرف غراي كذلك ولم تكن راغبة في أن تدخل أي صراع تلك الأمسية، ولكنه كان يقف هناك ينظر اليها بقامته الفارغة.

كان وسيماً في بذلته الفاتنة وفي قميصه الكتان الأبيض، وقال:

«جميل، جميل للغاية! اذاً سويت كل شيء مع بنيامين بالفعل ولم تضيعي

وقتاً، انك انتهازية ماهرة يامس وارين»

كانت الاضاءة معتمة في الردهة وكان وجهه في الظل لكنها كانت تتخيل النظرة الساخرة في هاتين العينين المنقطتين، ولحسن حظها كان يقف على مسافة منها، وردت قائلة:

«لا أعتقد أن لدى أي منا ما يقوله للآخر يا سيد لورنس.»

وحاولت أن تمر لتصعد الدرج لكنه مد ذراعه يسد الطريق أمامها، وقال في هدوء:

«على العكس، لدينا أشياء كثيرة يقولها كل منا للآخر، وكما أوضح صديقك دومينيك فالوقت لا يزال مبكراً وأعتقد أنك لا تودين الصعود للرقاد وحيدة الآن»

وأسرعت ضربات قلبها وأحست أنه رجل لا يطاق، ووضع يده الى مرفقها، وقال:

«تعالي... أراك تواقة الى أن تمزقيني ارباً! لنجلس ونتظاهر بأن كلا منا يستلطف الآخر، ولنشرب شراب الرفاق»

ووجدت نفسها في غرفة المكتب للمرة الثانية وهي لا تدري كيف وصلت ودفعها دفعة خفيفة الى الأريكة الجلدية بالقرب من المدفأة وقال:

«أي شراب تختارين؟ دعيني أقدم لك الشراب الذي يفضله بنيامين كخاتمة لهذه الليلة.»

«لا، أرجوك لا شيء بالمرة، شربت ما فيه الكفاية.»

ونظر اليها يقول :

«مازلت تخشينني؟ أم تخشين نفسك؟»

واعتبرت أن تلك الملاحظة لا تستحق التعليق، وجلست متصلبة في المقعد صامتة.

ووضع كأساً على المنضدة قريبا منها وقال:

«لن ينقص هذا من رغبتك في المشاجرة شيئاً، أعدك بذلك، واذا كنت مصممة

على الشجار فلنتشاجر في هدوء.»

وأشعل مصباحا قرمزياً وأطفأ الضوء الرئيسي في الغرفة، وجلس الى جوارها ومدد ساقيه وأخذ يتنهد في رضى وقال:

«هذا أسعد أوقات اليوم، في صحبة مناسبة، والآن، أطلقي رصاصاتك»

كان يلهو كأنها سمكة حول السنارة. فمنذ دقائق قليلة كانت غاضبة تكاد تسلخه من الغضب، والآن نسيت تماماً، وأخذت رشفة من الشراب لتدعم شجاعتها، وقالت:

«كنت ببساطة أريد أن أقول أن.. أنني أعارض تدخلك.»

ولم تستطع أن تقول شيئاً أكثر من ذلك.

«تدخل! بينك وبين المحترم دومينيك ! لاعلى الاطلاق! كنت فقط أذكرك كما قلت بنفسك فيما بعد أنك ستكونين مشغولة للغاية في الأيام القليلة المقبلة.»

«لكن الأمر لم يبد لي هكذا.»

«لا؟ كيف بدا لك اذاً؟»

«بدا كما لو كنت ثقيلا بدرجة لا يمكن احتمالها، وأحب أن تعرف ياسيد لورنس أنني أختار أصدقائي بحرية كاملة، ولا أنوي أن أطلب نصيحتك حول من يقع عليه اختياري.»

وقال في نعومة:

«انا أثق أنك لن تفعلي ذلك! وأعترف أنني لم أر من قبل من هو في مثل صلابتك وعنادك.»

«اذن أنت ترى أنني صلبة وعنيدة الآن كما ترى كذلك انني انت...»

وأكمل لها الكلمة:

«انتهازية، ولكن ينبغي ألا تأخذي ذلك على أنه اهانة، فبعض اصدقائي المخلصين وزملاء العمل يمتدحون الانتهازية بل أقول انهم لم يكونوا لينجحوا في العمل بدون قدر يسير من تلك الصفة... وقد يرى الجنس الآخر في هذه الكلمة شيئاً لا يصل الى المديح.»

وأضاف :

«أعترف بذلك ـ وأعتذر اذا كنت أخذتها مأخذاً آخر.»

ونظرت اليه نظرة حقد وكراهية وقالت في حرص :

«لا تحاول أن تعتذر ـ فأنا لا أهتم كثيرا برأيك فيَّ.»

وسألها في رقة:

«حقا يا أنطونيا ؟»

وامتد ذراعه، وتراجعت على مقعدها، ولكنه أخذ كأسه فقط . وأمسك بالكأس بين يديه، وضاقت عيناه عندما التقتا مع عينيها عبر حافة الكأس وقال:

«ولكن ينبغي أن تعرفي أن المناورة كانت ماهرة للغاية في اختيار الوقت والظروف المناسبة، ولا يمكنك أن تلوميني، عندما أعتبرها انتهازية.»

ورفعت رأسها وقالت في اقتضاب :

«لن تفهم اطلاقا أن دوافعي تختلف تماماً عما هو في رأسك. لكنني تصرفت انطلاقا من احترامي لمشاعر الآخرين.»

وتراجع الى الخلف وعيناه نصف مغمضتين وقال:

«تقصدين من ؟»

«العم بنيامين بصفة خاصة فهو يلح أن أكون معه ثم أمي التي لم تكن حياتها سهلة وأريد أن أعوضها عما قدمته لي.»

وتشدق يقول :

«أهداف خالصة... ليس فيها شيء من الأنانية.»

«ولم لا؟ هل غريب أن يكون بعض الناس غير أنانيين؟»

وعلق :

«بالنسبة اليَّ فإننا جميعاً أنانيون.»

«هذه نظرة حيوانية ساخرة.»

«نعم... وبناء على ذلك أكون أنا شخصياً حيوانياً ساخراً... كان ينبغي أن أدرك أنك اكتشفت ذلك الآن.»

وقالت في اقتضاب :

«اكتشفت ذلك .»

وأدارت رأسها بعيدا وتهدل شعرها الذهبي على ظهرها. وتبع ذلك صمت كان ينذر بخطر وفكرت فيما يمكن أن يفعله لو أنها نهضت واتجهت الى الباب، ولكنها أحست بساقيها لاتقويان على حملها. وقطع صوت غراي الصمت بقوله في رقة:

«انك فاتنة يا توني ... وتعرفين ذلك بالطبع.»

وأدارت رأسها وتوجست منه شيئاً لم تكن لتخطئه هذه المرة في عينيه وجف حلقها واضطربت أنفاسها وحولت عينيها بعيداً عن عينيه القلقتين ونظرت الى يده التي تستقر على الأريكة ورأت أصابعه على بعد بوصات قليلة من فستانها الحريري.

وفجأة انكشفت الواجهة التي يستتر وراءها وامتلأ وجهه بالغضب وتكسر صوته بالانفعال قائلا:

«ما الذي جعلك تأتين الى هنا؟ ياللشيطان لتعذيبي؟»

وتبادلا النظرات في الضوء المعتم وتحركت يده لتمتد تجاهها واندفعت أصابعه تتخلل شعرها وتسللت ولم تعد تسيطر على نفسها واقتربت منها. وعرفت بطريقة غامضة ان هذا ما كان يصبو اليه وعندما كانت مياه الفيضان تحيط بها من كل مكان.

كان وجهه شديد القرب منها ولم تكن في الضوء المعتم ترى فيه أي عاطفة بل لم تكن لتصدق أن لديه شيئاً من ذلك.

وكانت واهنة تطفو على موجتي المد والجزر.

ودق جرس الهاتف عبر الغرفة، واعتدل رأسه الى الخلف وسكنت ذراعاه وانتظر أن يتوقف الجهاز عن الرنين، ولكنه استمر بدون توقف يتردد صوته في أرجاء المنزل القديم الهادىء. وأخيرا توقف الرنين، وأطلق غراي أنفاسه وتمتم بشيء لم تسمعه توني فقد بدأ الهاتف يدق ثانية قبل أن يتم ما يتمتم به.

وسمعت ما قاله غراي عند ذلك جيداً... كان يطلق الكلمات بطريقة

واعية، وهو يسير عبر الغرفة، وقال:

«نعم! من؟»

ونظر الى توني، وهز كتفيه، وأشار اليها بأن تبقى حيث هي، وقال للمرة الثانية:

«من؟ لا أستطيع أن أسمع... الخط سيء... أوه مارشا، هل هذا وقت مخابرات؟ نعم... أعرف أنني قلت... ولكننا في الريف هنا... وكل شخص يذهب الى الفراش في وقت مبكر، ماذا؟»

وضحك

«لا بالطبع، لم أكن كذلك...»

ادار ظهره الى توني، فنهضت في هدوء، وتسللت وتوقفت في الردهة لحظة، وقد جف فمها وأخذ قلبها يخفق في هلع. ثم صعدت الدرج مسرعة الى غرفتها كأنه الشيطان في أثرها.

ولم تحاول أن تأوي الى الفراش لفترة طويلة. بل جلست على حافة الفراش ترتعد من الداخل، وحاولت أن تهدىء نفسها باستعراض أحداث ذلك اليوم الغريب، وسرعان ما أدركت أن عقلها لم يكن يعمل على الاطلاق بينما كانت انفعالاتها تعمل طوال الوقت. وكان غراي لورنس هو السبب... وأدركت رغم ضحالة خبرتها أن له جاذبية جدية [illegible] الذي لاتستطيع امرأة ان تقاومها.

لم يعد لديها ثمة مجال للشك في أحاسيسها نحوه. كان يحب زوجته بعنف وكانت هي شديدة الشبه بها لدرجة جذبته اليها رغم مشيئته، واتضحت لها حقيقة الموقف، كان موقفا صعبا. لايحتمل! ومع ذلك قبلت اقتراح بنيامين بالاقامة معه في البيت. وهكذا لن تستطيع أن تتفادى رؤية غراي بما تعنيه من مزالق الخطر!

وتنهدت في عمق، ونهضت لتغسل وجهها وتنظف أسنانها، سوف تتضح الأمور أكثر، لقد اتخذت قرارها الآن ولم يكن من اليسير أن ترجع عنه رغم أن

بنيامين لم يعرف به بعد، وكان عليها ان تخبره في أقرب فرصة، في صباح اليوم التالي إذ لايليق أن يسمع بقرارها من غراي وليس منها.

وخلعت ملابسها وأوت الى الفراش الوثير ونظرت حولها الى الأثاث الفاخر، ان أية فتاة تكون بلهاء، لو أنها أضاعت فرصة الحياة في بيت مثله؟ اذاً لماذا تسمح لآراء غراي لورنس بأن تتدخل في قرارها؟ وعلى أي حال فعندما تنتهي عطلة عيد الميلاد عليه أن يكون في لندن معظم الوقت، وعندما يحضر سوف يعتاد رؤيتها في المكان، ولن يكون لوجه الشبه بينها وبين ميدج أي تأثير عليه عندئذ، فأمامه بنات كثيرات. أن التي كانت تُضحك وتعبث معه، كان من الواضح أنهما يستلطفان بعضهما الى حد كبير، ثم هناك مارشا التي طلبته في وقت متأخر من الليل مما يدل أنها صديقة حميمة. ولكن من المؤكد أن هناك أخريات كثيرات يتجذبن بسحره، وعليها فقط أن تتذكر أنها ليست منهن، وعندما يحين الوقت ستجد من يحبها لذاتها، أنطونيا وارين... وليست البديل لشخص آخر...

٦ ـ المواجهة

برغم أن توني كانت تفهم الموقف جيداً وبرغم الفراش الوثير الذي كانت ترقد فيه نامت نوماً متقطعاً، واستيقظت وارتدت ثيابها مبكرة في الصباح التالي، ووجدت أمها تعد طعام الفطور.

«صباح الخير ياعزيزتي! حسبت أنكم سهرتم الليلة الفائتة وستنامون طويلاً هذا الصباح، وسمحت لشيرلي ومافي بالتأخير حتى العاشرة لأنهما بذلتا جهدا كبيراً مساء الأمس. هل تأكلين ياتوني؟ يمكننا تناول فطورنا في المطبخ. وسأضع لبنيامين فطوره على صينية فهو يحب الافطار مبكراً.»

كانت تثرثر في سعادة وتتحرك في المطبخ الحديث كأنها اعتادته طوال حياتها، وواصلت:

«لن يفطر سوانا، فالسيد لورنس يعتني بنفسه في جناحه الخاص.»

وأخذت ثلاث بيضات من الثلاجة وشغلت توني بتنظيم الأطباق وأدوات المائدة التي وضعتها أمها، وقالت:

«أمضيت الاجازة كسائق في النقل العام فأنت لم ترتاحي أبداً...»

وقالت السيدة وارين وهي تقطع شرائح الخبز:

«أنني أحب ذلك! أحبه حقا! انه حلم أن أوجد في مطبخ كهذا بعد تلك السنوات الطويلة.»

ورفعت توني حامل التوست وهي تقول:

«ما قولك في أن تقيمي هنا بصفة دائمة؟»

وحدقت السيدة وارين فيها وقد تسمرت سكينة قطع الخبز في الهواء وقالت:

«أقيم هنا؟»

وكررتها في بلاهة!

وأومأت توني قائلة:

«طلب مني عمي بنيامين مساء الأمس أن تقيم معه.»

وبلعت أمها ريقها وقالت:

«وأنت ... قبلت؟»

وابتسمت توني وقالت:

«أليس شيئاً غريباً؟ أنا بكبريائي السيء الذي لايفارقني! ولكنني وافقت أو على الأصح اشترطت ان توافقي يا أمي!»

«إنني... إنني...»

وغاصت السيدة وارين في أحد كراسي المطبخ، وانهمرت باكية. لم، تر توني أمها تبكي من قبل، وأدركت بأن الفرح المفاجيء قد يؤدي الى صدمة تماماً كالحزن المفاجيء. ومسحت أمها عينيها أخيرا وقالت:

«آسفة ياعزيزتي... كان ذلك أكثر مما أتحمل، وقد جاء فجأة، ظللت أحلم واثق في أنه سيحدث...»

وابتسمت توني في مرارة، وقالت:

«صنعت أكثر من الحلم والتمني، أعطيت الأحداث دفعة قوية عندما ذهبت الى واريتز وسلمت ذلك الخطاب يوم أجريت المقابلة.»

ونظرت أمها في قلق تقول :

«لن تلوميني من جديد بسبب ذلك ياعزيزتي! أردت لك حياة سعيدة ياتوني!»

«أعرف، وفي أي حال كان عليّ أن أتخذ قراراتي بنفسي... فقط يبدو لي كل شيء وكأنه قصة خيالية أقوم فيها بدور سندريلا.»

وابتسمت السيدة وارين ، وربتت على شعر ابنتها، وقالت:

«إنك أجمل سندريلا، وسوف يأتي أمير الأحلام ليقول لك الشيء نفسه.»

لم يكن ثمة فائدة من الجدل مع السيدة وارين وغيّرت توني الموضوع قائلة:

«أريد أن أجعل السيد بنيامين يعرف أنني اتخذت قراري. هل ترين مانعاً في أن أكتب اليه ورقة أضعها على مائدة فطوره؟»

وبينما كانت السيدة وارين تصنع التوست وتسلق البيض، ذهبت توني الى غرفة المكتب لتبحث عن قلم وورق. كانت الغرفة كما تركتها الليلة الفائتة فيها آثار رائحة السيكار، والكؤوس لاتزال في امكنتها، وامتقعت للمنظر خاصة كيف صار حال المساند وأصلحتها ثم التفتت فوجدت ورق الكتابة على المكتب، وكتبت:

«عمي العزيز بنيامين اذا كنت لاتزال تريدني، فان اجابتي هي: نعم! بالحب والعرفان ـ أنطونيا»

وبللت المظروف بلسانها ثم أغلقته بإحكام. ونهضت، وسارت إلى الباب وهي تلقي نظرة أخرى الى الأريكة.

وعند الحادية عشرة أخذت توني وجهتها على الممر الرئيسي في المرج الطويل ومن خلال الفتحة المقوسة العالية المصنوعة من خشب الزان في نهايته. ورأت الكوخ عند حافة الحديقة الخلفية. يكاد يختفي وسط أشجار الفاكهة. وعلى واجهته تمثال التنين الصغير وخرجت آن للقائها تقول:

«انا سعيدة للغاية بقدومك. أعددت القهوة. أما دومينيك فذهب الى الأسطبل وسيحاول الحضور ليشرب القهوة معنا.»

ودخلت توني الى غرفة الجلوس الصغيرة التي تعبق بعطر بعض الزهور الزنبقية وتتوهج فيها نار المدفأة. وأخذت فنجان القهوة ونظرت حولها نظرة اعجاب وقالت:

«جميل ومريح للغاية!»

وجلست آن على الجانب الآخر للمدفأة ترتدي تنورة من التويد وكنزة بيضاء صنعت بالتطريز اليدوي. وبدت رائعة بملامحها الرقيقة وعينيها الواسعتين.

وخطر لتوني من جديد ما اذا كان بين آن وغراي لورنس أية علاقة. فليس في آن ما يذكره بميدج ولا ما يجعله يعاملها بتلك المرارة المكبوتة. يستطيع معها أن يبدأ من جديد اذا ما كان يفكر في الزواج من جديد.

وضحكت آن . وقالت:

«مريح جداً. نشعر أنه ضيق جداً في بعض الأحيان. ويشعر اخي المسكين أنه محاصر هنا. ولكننا نسيّر أمورنا. والحق أن السيد وارين كان كريماً جداً معنا فقد أمر بتوسيع المطبخ وجهزه كاملاً. إنه مطبخ فاخر أرجو أن تشاهديه قبل أن تنصرفي والسيد وارين رجل رائع!»

«أتفق معك تماما...»

قالت توني ذلك وهي تتذكر كيف عبر عن ابتهاجه لقرارها. كانت قد صعدت الى غرفته بناء على طلبه، ووجدته جالساً في السرير بردائه الأسود المزين بجديلة ذهبية. وبشعره الأبيض ولحيته الأنيقة...ويبدو أكثر مهابة. ولم يكن زيه أو مظهره ليؤثرا على تعبيره الطبيعي بالفرح والسرور. فقد أخذ يديها بين يديه قائلاً:

«إنني مسرور للغاية يا أنطونيا. وينبغي أن تتأكد أنك لن تندمي على هذا القرار»

كانت توني قد ذكرت له أن آن دعتها لتشرب معها القهوة واستأذنته في زيارتها، وربت على وجنتها قائلاً:

«أريدك أن تفعلي كل ما يروق لك يا طفلتي العزيزة! وعندما تتعودين الوضع الجديد قد تجدين أن لك شيئاً خاصاً تهتمين به أو هواية خاصة تعبرين بها عن مواهبك واذ ذاك أرجو أن تخبريني فسأكون في منتهى السعادة لأوفر لك ماتريدين.»

وأضاف وهو يبتسم:

«طالما أنك لا تطلبين أثمن ماسة في العالم...»

وعلقت توني في جدية:

«أخشى أن تكون مصمماً على تدليلي فقد تعودت أن أعمل من أجل لقمتي كما تعلم.»

وأجابها بنيامين :

«إذا كنت تريدين العمل فليست هناك مشكلة... مارأيك في أن تتعلمي كل شيء عن العمل الذي نشتغل به؟»

كانت تعرف أن شركة واربنز من أشهر شركات المجوهرات في بريطانيا وقد شاهدت بنفسها معرض المجوهرات في بوند ستريت ولم تكن تصدق أنه يعرض عليها العمل في مؤسسته، وقالت:

«تعني أنني أستطيع أن أذهب الى لندن؟ وأنك سوف تجد لي عملاً هناك؟»

وانفرجت أسارير بنيامين وقال:

«أذكر أنك كنت تبحثين عن عمل؟»

«نعم..ولكن ذلك كان شيئاً مختلفاً..»

وابتسم وقال:

«لن تكون الآنسة أنطونيا بعد الآن عبدة للآلة الكاتبة، أنه ليسعدني أن تعرفي كل شيء عن الأحجار الكريمة، عن الأشكال والتصاميم وكل شيء عن الحرفة التي تصنع أدوات الجمال، هل يناسبك ذلك؟»

ولمعت عينا توني ، وقالت:

«شيء لا يكاد يصدق، اذا كنت تعتقد أنني أقدر على تعلم ذلك»

«تستطيعين يأنطونيا»

ونظرت توني الى أن وقالت:

«نعم، بنيامين رجل عظيم، انه طيب، كريم، كشخصيات الكاتب ديكنز التي تعيش لتجلب السعادة للآخرين.»

وجلست أن صامتة لحظة ضحكت بعدها توني في شيء من الاضطراب وقالت:

«اتساءل هل من الخير أن يحصل الانسان على كل مايتمناه؟»

وعلقت أن بابتسام:

«هذه نقطة لا تحتمل المناقشة اذا ما حانت الفرصة لأي انسان... ولكن بعض الناس تفسدهم النعمة بينما آخرون لا يتغيرون مهما جاءهم الغنى والثراء، هناك صنفان من الناس القادرون الذين يعطون والضعفاء الذين يأخذون، والقادر شخص غير أناني أما الضعيف الذي يأخذ فقد لا يشبع أبدا فكلما أعطيته طالب بالمزيد»

فواصلت تقول:

«أخشى أن أكون أتفلسف، لو كان غراي موجودا لغضب مني، فهو يتهمني بأنني آخذ كل شيء مأخذ الجد... يا لغراي المسكين»

وأخذت توني ترشف قهوتها في صمت. كل شخص يبدي الاشفاق على غراي ويلتمس له الأعذار ماعداها! لم تكن ترى أنه يستحق أي إشفاق ولم يكن له عذر فيما يبديه نحوها من كراهية.

وقالت أن :

«لا تجعلي غراي يعكر عليك صفوك انه يصبح شخصاً غير محتمل اذا أراد ذلك، وأحسست أنه كان يتعمد مضايقتك الليلة الماضية.»

«أنه يكرهني لأنني شبيهة زوجته»

وحاولت أن تخفف من وقع العبارة الكئيبة فقالت:

«إنك تلاحظين شعوره عندما يراني في المنزل لابد أنه كان يحب زوجته كثيرا.»

كانت أن تنظر اليها في استغراب ، وقالت:

«اعتقد أنه كان يحبها بالفعل...»

وتحدثت أن عن القرية المجاورة وعن سوق المدينة الصغير على بعد خمسة أميال حيث تشتري ما يلزمها وحيث تقع المدرسة التي تعمل بها.

وقالت توني :

«بدأت أحس كأنني في بيتي فلقد نشأت في قرية وأعتقد أن سائر القرى تتشابه، وسأجد ما يشغلني.»

ولم تكد تقول ذلك حتى ساورها الشك فيا قالته، كان لحياتها حتى الآن هدف تسعى الى تحقيقه، فالأمتحانات المدرسية والتدريب على أعمال السكرتارية وفيا بعد عملها في لندن الذي كان من الممكن أن يوصلها الى وظيفة أكثر مسؤولية؟ فهل يكفي الآن أن تعيش في فراغ؟ كان بوسعها أن تشارك أمها بعض الأعمال ولكن من الصعب أن تتنازل أمها عن مسؤوليتها في إدارة المنزل. وكان هناك عرض بنيامين بأن تتعلم ما يرتبط بتجارة الماس ولكنها لم تكن تستطيع أن تكرس حياتها كلها لهذا العمل.

ونظرت الى الساعة الموضوعة على رف المدفأة وقالت:

«لا بد أن أنصرف الآن والا تأخرت على الغداء.»

وعلقت آن:

«سوف يشعر دومينيك بالأسف إذا لم يرك.»

ونظرت من النافذة وقالت:

«هل لاحظت أن المطر بدأ يهطل من جديد؟ هل أحضرت معك شيئاً يقيك المطر؟ حسناً، خذي معطفي فلن أحتاج اليه وسوف يحضره دومينيك فيا بعد.»

ورجعت ومعها معطف أحمر له غطاء واق للرأس لبسته توني شاكرة عنايتها بها.

ولاحظت أنها تلبس صندلاً لا يناسب المطر فقالت:

«انتظري دقيقة! أحضر لك حذاء المطر من المطبخ. انه غير انيق لكنه يفيد جداً في هذه الظروف.»

وأحكمت توني أزرار المعطف، ولبست غطاء الرأس ونظرت في المرآة الموضوعة فوق خزانة في ركن من الغرفة وسمعت آن تبحث في مخزن خلف الكوخ فقالت:

«لاتشغلي نفسك إذا كنت لا تجدين...»

وانفتح باب الكوخ الذي يؤدي الى غرفة الجلوس مباشرة في تلك اللحظة، وقبل أن تستدير توني لتستطلع الأمر وجدت نفسها تقع في عناق من الخلف

بين ذراعين صلبتين، وسمعت صوت رجل يقول:

«عزيزتي كنت أعد الدقائق لأخرج وكنت أخشى ألا أستطيع...»

كانت لهجته لهجة عاشق نفذ صبره، ووقعت في حيرة من أمرها..ذهب دومينيك الى أبعد مما يحتمل ولا بد أن تقول له ذلك.

واستدارت بين الذراعين اللتين تمسكان بها ورأت فما متعطشاً على مسافة قريبة يقترب منها. ولكنه تقهقر الى الخلف وسقطت الذراعان اللتان تمسكان بها ووجدت نفسها تحدق في شخص غريب تماماً، رجل أشقر البشرة والشعر له وجه نحيل يدل على أنه شخص مثقف.

والتفتت توني ووجدت آن تقف عند الباب وبيدها حذاء المطر واتسعت عيناها في دهشة اذ شهدت على الأقل جزءا مما كان يحدث، وتبادلت مع الرجل الأشقر نظرة تدل على خيبة الأمل، وقال:

«هل كان بوسعي أن افطن لوجود اثنتين لهما المعطف وغطاء الرأس الأحمر نفسهما؟»

ونظر الى توني، وأضاف:

«أقدم اعتذاري.»

واتجه نحو النافذة ووقف مديراً ظهره لهما ووضع يديه في جيبيه . ألقت آن بالحذاء، وتحملت مسؤولية الموقف واتجهت الى الرجل الواقف عند النافذة، ووضعت يدها على ذراعه وقالت:

«توني ، هذا كيث هيسلي معلم الفنون في مدرستي، وهذه توني، ابنة أخ السيد وارين يا كيث حدثتك عنها من قبل.»

وصافح كيث توني ، وهز كتفيه قائلاً:

«تسببت لك في الحرج يا آن... خرجت عن شعوري... إنها غلطتي بالطبع.»

وألقى بنفسه في كآبة على كرسي قرب المدفأة، وقالت آن في هدوء:

«لا تجزع يا كيث، ان توني واحدة منا.»

والتفتت الى توني وقد اختارت كلماتها بعناية:

«إذا طلبت اليك ألا تذكري شيئاً على الاطلاق لأي شخص عما وقع وعن رؤيتك كيث هنا فهل توافقين؟»

«بالطبع... بدون أن تطلبي الى ذلك.»

وارتفع رأس كيث يقول:

«لا أكاد أصدق.»

ولبست توني حذاء المطر، وقالت:

«أشكرك على القهوة يا آن وعلى المعطف والحذاء... لا تتكبدي مشقة صحبتي الى الباب!»

وابتسمت لها وبدأت تخوض في ماء المطر خارج الكوخ. لم تكن لديها أي فكرة عن العلاقة بين آن و كيث بل تأكدت أن العلاقة بين آن وغراي لا تزيد عن كونها صداقة وارتاحت الى ذلك الخاطر فآن من وجهة نظرها لطيفة جداً ولا يستحقها غراي.

وهرولت تصعد الدرجات القليلة المؤدية الى المنزل وهي تشعر بالارتياح قال بنيامين وهو يدفع بعلبة السكائر الذهبية الخاصة به الى غراي .

«بما أننا جميعاً هنا من المناسب أن نضع خطة للأيام القليلة المقبلة.»

كان الأربعة قد انتهوا من تناول الغداء، وحضر غراي من جناحه ليشاركهم بدعوة من بنيامين ، وقالت السيدة وارين لتوني :

«عندما ذهبت لدعوته، كان على وشك أن يفتح علبة من علب الطعام المحفوظ لا أستطيع أن أفهم لماذا يصر على أن يبقى بمفرده؟»

وبدا أن توني كانت تفهم لماذا؟ كانت تعتقد أنه يتفادى رؤيتها بعد ما حدث الليلة السابقة، ولكنها ابتسمت وقالت:

«ربما كان لديه عمل يريد انجازه.»

وأسند غراي ظهره الى الكرسي حيث يجلس وهو يعبث بالسيكار بين أصابعه، وقال:

«أعتزم العودة الى لندن في وقت مبكر من صباح الغد.»

ودهش بنيامين ، وقال:

«ما الذي يدعو لهذه العجلة؟ والمصنع مغلق!»

وهز غراي رأسه يقول:

«سيكون جو هناك، إنه حريص على أن ينجز المطلوب منا لمعرض كارين لايز، إنك تعرف مدى حرص جو على اتقان العمل، ، ويكره أن يجد نفسه في ضيق من الوقت، وينبغي أن أكون موجودا لانجاز بعض الأعمال. وقد وعدت كذلك أن أقابل مارشا غداً بخصوص مجموعة باريس، وقد اتصلت بي الليلة الماضية.»

وأومأ بنيامين قائلاً:

«ربما تكون على صواب، ولكن بالنسبة اليّ فانني أوثر الكسل بقية الأسبوع لأستمتع بفن الطهو الذي تقدمه صديقتي مارغريت.»

وأشرقت ابتسامته نحو السيدة وارين التي بادلته الابتسام في سعادة كاملة، وقال بنيامين:

«إذن فسنبقى هنا ثلاثة، وتبقى كذلك مشكلة الشقة في هورنسي.»

والتفت الى أنطونيا يقول:

«أعتقد أن أفضل شيء» ياأنطونيا إذا كنت توافقين أن تسافري مع غراي الى لندن غداً، وبوسعه أن يوصلك الى الشقة، وتستطيعين أن تعملي الترتيبات مع صاحبة المسكن، وتحزمي اغراضكم ما رأيك في هذه الفكرة؟»

ونظرت توني الى أمها، وقالت السيدة وارين بسرعة:

«إنك لا تحتاجينني ياعزيزتي! فسيكون بوسعك أن تتفقي مع أحد الحمالين ليحضر كل شيء الى هنا، وليس عندنا أثاث كثير! فهناك آلة التطريز وآلة الخياطة وحاجياتنا الشخصية وستكون السيدة بلاث مسرورة عندما تعطينها محتويات خزانة الطعام.»

وأضاف بنيامين :

«وسيكون غراي قريباً منك اذا ما أحتجت الى أية مساعدة.»

وابتسم لكليهما وقال:

«اتفقنا ؟»

وقالت تونى :

«نعم .»

وتمتم غراي كأنه تلقى أمراً لايسره قائلاً:

«كما ترى يا سيدي.»

لم يكن غراي يعترض على أي رغبة لبنيامين ، وخطر لتوني أن كليهما واقع في فخ. سوف يكون عليهما أن يسافرا معا سواء أرادا أم لم يريدا ولم يكن أمامها من سبيل آخر.

وتحرك غراي في كرسيه الى الخلف قائلاً:

«أقترح أن نتحرك في الصباح الباكر. هل تناسبك الثامنة صباحا؟»

وأجابت توني :

«مناسبة تماما.»

كان غريبا أن يجلس اثنان على مائدة الطعام بدون أن تتقابل عيناهما بطريقة مباشرة، ولم يكن أحدهما ينظر الى الآخر الآن.

ونهض غراي وقال:

«ربما تسمحون لي فلدي بعض الرسائل أريد اكمالها.»

وقال له بنيامين :

«ولكنك ستتعشى معنا هذا المساء؟»

«أشكرك؛ ولكنني مدعو لدى أسرة بترون ولم أستطع الاعتذار لكنني سأراك قبل ان أرحل في الصباح يا سيدي.»

وانحنى بالتحية وخرج.

وتنهد بنيامين وقال:

«كان له ولد... ميدج أصدقاء كثيرون في المنطقة، وغراي مطلوب دائما برغم أنه ضيق وقته للمجاملات الاجتماعية، وعبء العمل كثير عليه.»

والتفت الى السيدة وارين بابتسامة وقال:

«سترتب لكما لقاء مع الناس الطيبين الذين يعيشون هنا وربما أقمنا حفلاً صغيراً في احدى الأمسيات عندما تعود أدا من المستشفى وتستأنف عملها. إنني أتمنى تقديم أسرتي الجديدة لأصدقائنا.»

وعلقت السيدة وارين :

«اشكرك يا بنيامين... سيكون هذا شيئاً سعيداً.»

كانت أمسية هادئة لم يخرج فيها غراي من جناحه وتركت توني أمها تستريح بعد الغداء، بينما ذهبت لتستطلع المطبخ بمعداته الحديثة وأدواته الكهربية، كان يحوي كل شيء يدخل السرور على قلب الطاهي الشغوف بعمله وييسر العمل في الطهو. خلاطات ، عصارات، مناخل طواحين للمكسرات والبن، ماكينات لتقشير الخضر... كان مليئاً بالمعدات التي جعلت رأس توني يدور ولكنه كان بالضبط ما تهواه أمها بنزعتها المتعطشة الى الأشياء العملية.

وجلس الثلاثة فيما بعد في وقت متأخر من المساء لشرب الشاي حول المدفأة في غرفة المكتب ثم ذهبت السيدة وارين لتعد وجبة العشاء. كان بنيامين يتحين هذه الفرصة ليتحدث الى توني حول المواد الخام التي تستخدم في صناعة الأحجار الكريمة. وقال:

«أنني أعشق الأحجار الكريمة وظل جمالها وغموضها يسحرني منذ الطفولة . تماماً كما سحر أخي، جدك نوع آخر من الرجال... كان يظن أن عملنا ليس سوى عمل تجاري ولذلك رفض المشاركة فيه، كان رومانتيكيا حقيقيا. أما بالنسبة اليّ فإنني أجد الجمال والشاعرية في صناعة أشياء جميلة من الصخور والمعادن التي قد تبدو لأول وهلة في صورة لا توحي بالجمال. وهي التي أنتجها باطن الأرض خلال ملايين السنين.

وتحدث عن الياقوت والزمرد والأوبال وعن أحجار أخرى لم تسمع بها توني من قبل، وعن الأماكن النائية من العالم حيث توجد تلك الأحجار، وقص عليها السلسلة الطويلة من العمليات التي تؤدي في النهاية الى الحلية المنتجة، الدبوس

القاخر أو الخاتم أو العقد، وعن اختيار الصخور بواسطة الخبراء الذين يعتمد معاشهم على خبرتهم في اصدار الأحكام وعلى قدرتهم على فرز الأحجار وتصنيفها حتى يصل الحجر الكريم في النهاية الى مهارة القاطع وقدرته على التشكيل، وقال:

«وعندما تدركين العمليات التي يمر بها كل حجر ثمين في طريقه ليصبح الحجر المتلألىء اللامع الذي ترينه في قطعة المجوهرات، وعندما تأخذين في الاعتبار الجهد الشخصي الذي يعطى له بواسطة رجال كرسوا حياتهم للسيطرة على المهارة اللازمة للتمييز والتشكيل، يمكنك أن تقدري أن مجوهرات الدرجة الأولى ليست غالية الثمن كما يتصوّر البعض.

وجلست توني ترقب وهج الكتلة الخشبية وتصغي باهتمام بالغ الى حديث بنيامين الذي استولى على مشاعرها، وأحست بأنها تنتمي في شكل ما الى الموضوعات المثيرة التي تحدث عنها بنيامين وهو يقول:

«ولكن تاج الاحجار الكريمة من وجهة نظري هو الماس. إنك لاتتخيلين مدى السحر الذي فيه. تلك الحصى الصغيرة التي وطأتها أقدام البشر قروناً قبل أن يعرف الأنسان قدر الجمال الذي يختبىء فيها، وقبل أن يتعلم كيف يقطعها ويصقلها. ان جمال الماسة يا أنطونيا في النار التي بداخلها كما يحلو لنا أن نطلق عليها ذلك الوميض المتلألىء الذي يبدو كقوس قزح عندما ينعكس عليها الضوء. ان مصدر العجب الدائم لي أن حجراً خاماً يمكن أن يحمل مثل هذا الشيء الباهر في داخله بانتظار أن يكشف عنه انسان. تعالي وانظري الى هذه!»

وفتح أحد الأدراج وضغط زرا كشف عن مكان صغير مستقل وقال:

«مخابئي السرية أكثر أماناً من الخزانة التي تعلن عن نفسها.»

وأخرج حقيبة صغيرة وفتحها لتكشف عن حصاة صغيرة تميل الى البياض يغلفها غشاء رقيق وقال:

«هل سمعت عن الماس الخام؟»

وابتسم ووضع الحصاة في يد توني ، وواصل:

«هذه هي !»

وأدارت الحصاة بين السبابة والابهام في رقة وفي نقطة منها كان الغشاء الرقيق قد تآكل، وأخذت هذه النقطة تلمع كأنما الضوء حبيس داخل الحجر.

وقال بنيامين :

«هذه الماسة من نوع ممتاز وتكاد تكون نقية تماماً اشتريتها منذ زمن بعيد كهدية لحفيدتي في عيد ميلاد طفلها الأول وكنت أحدث نفسي انه سيكون لي حفيد عظيم أو حفيدة تحمل مسؤولية الحفاظ على تجارة الأسرة يوماً ما، ولكن... لم يتحقق...»

وتنهد في عمق وقال:

«وهكذا ظل هنا منذ ذلك الوقت ينتظر أن يفرج عن جماله، وقد تقولين أنني رجل عجوز خيالي....»

وهزت توني رأسها اذ تأثرت بقصته وهو يعيد الماسة باعزاز الى مخبأها.

وواصل يقول:

«أحيانا أفكر في ملايين السنين التي عملت الطبيعة فيها عملها في الصخور لتعطينا في النهاية حجرا كريما مثل هذا...»

ومضى في تأمله:

«الاستمرار... الطريقة التي تمضي بها الحياة، تجدد نفسها باستمرار ويحدث الشيء نفسه في الأسرة، ويمكن للأنسان أن يتخيل كل تلك الدهور من الزمن، والتخيل متعة! والماس الذي يصنعه الانسان لا يمكن أن يصل الى مرتبة تجعل منه بديلاً مهما كان جميلاً.»

وسألته توني :

«ولكنك لا تستطيع أن تصنع ماساً؟ أقصد ماساً طبيعياً؟»

«من الممكن عمل عينات صغيرة، نعم، وتصنع بالطريقة نفسها التي تصنعها بها الطبيعة من الكربون النقي مع الاسراع بالعملية مليون مرة. ومع ذلك فهناك عقبة تقف في طريق صنع الماس من أي حجم، وهذه العقبة هي الحرارة الشديدة

المطلوبة والضغط.. هل اضجرك الحديث يا أنطونيا؟»

«لا، على الاطلاق، أرجوك أن تستمر»

وأومأ وقد شعر بالرضى، وقال:

«كنت سأحدثك عن الماس الصناعي الذي يعتبر تقليداً للطبيعة، فقد نجح الكيمائيون في صنع أحجار صناعية تشبه الماس الطبيعي في صلابته بل وتزيد عليه أحياناً في اللمعان وفي النار... وهي تشابه الى حد ما تلك المواد الحديثة التي تستخدم في صنع الثياب هذه الأيام كالصوف الذي لم يعرف الغنم والحرير الذي أنتجته مغازل آلية ضخمة ولم يعرف دودة القز»

وضحكت توني معه وقد زاد تقديرها للرجل العجوز وعرفت بعض الشيء عن صناعة الماس التي توارثتها الأسرة عبر تلك السنين.

ومضى بنيامين يقول :

«ان بعض الناس سعداء فعلاً بتلك المستحدثات، بل لا يمكن تفاديها أحياناً نتيجة للاستهلاك الكبير للمنتجات الطبيعية، ولكن لا يوجد بديل للماس الحقيقي»

واستفسرت توني :

«وهل تستخدم واريتز الماس الصناعي؟»

وهز بنيامين رأسه في ابتسامة ضئيلة:

«اننا في واريتز نلتزم بتقاليد خاصة لأننا حريصون على سمعتنا في التعامل بما هو أصل ونادر، والندرة من العوامل التي تكسب الماس قيمته، والواقع أن أمور الماس تخضع للكثير من القيود والوارد منه ليس وفيرا، وأحيانا نقوم بعمل نسخ من بعض القطع لعملائنا»

وتنهد قائلاً:

«ليس تفكيراً ناضجاً أن يحفظ الناس الماس الأصيل في خزانات البنوك لدواعي الأمن ويكتفون بلبس الماس التقليد»

وجلس عند ذاك في كرسيه الجلدي الوثير صامتا وضوء الموقد يتوهج منعكساً

على السترة والمنظار المثبت في شريط واللحية البيضاء الأنيقة، وتعجبت توني من جديد كيف أصبح هذا الرجل الذي عرفته منذ أسابيع قليلة فقط يشعر نحوها كأنها فرد من أسرته، ومالت عليه في انفعال تقول:

«أشكرك كثيرا إذ أعطيتني هذه المعلومات»

«سأكون في منتهى السعادة لو توفر لديك الاهتمام لتقومي بأي دور نشيط في ادارة عملنا»

«أوه... لا أعتقد أنني سأكون على هذا المستوى في أي...»

ورفع يده ليمنعها من اكمال الكلام وقال:

«ان لديك الذكاء ياعزيزتي وأمامك فسحة من الوقت لتتعلمي وسوف أعلمك كل ما أستطيع، وسوف يعمل غراي كذلك على أن تكون مساعدتك لنا مفيدة بكل السبل»

وبدا على توني بعض التشكك، ولكن بنيامين هز رأسه وقال بطريقة مبهمة:

«تعلم غراي أن يميز الأصالة حيثما يجدها»

كان ذلك اطراء من بنيامين لها شكرته عليه ولكن لم يكن لذلك علاقة باتجاهات غراي نحوها سواء الآن أو في المستقبل. كان الموقف بينها وبين غراي يشبه الى حد ما الماسة الصناعية التي تحدث عنها بنيامين، هكذا ظنت وهي تبتسم في قرارة نفسها.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة في تلك الأمسية عندما جاء دومينيك ليأخذ معطف أن، وكان بنيامين قد صعد الى الفراش منذ فترة بعد أن أغلق الباب الكبير وقال:

«ان غراي معه مفتاح للباب الجانبي. اسعدت مساء ياعزيزتي، ورحلة سالمة صباح الغد، سوف يطمئن غراي الى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة اليك»

قالها وهو يبتسم ابتسامة الحيرة. وصعدت أمها كذلك وجلست توني على

الأريكة المغطاة بالقماش القطني المزخرف الى جوار نار المدفأة الذابلة في الردهة تستغرق في كتاب أعطاها إياه بنيامين عن تجارة الأحجار الكريمة، وكانت قد اندمجت في الموضوع بدرجة جعلتها تفاجأ عندما سمعت نقراً على الباب وصاحت:

«من الطارق ؟»

وجاءت الاجابة من الخارج:

«أنا... دومينيك !»

وترددت لحظة ثم فتحت الباب، وقال:

«تحياتي يا عزيزتي... أ... أسف لمجيئي متأخرا، كنت في احتفال... فشباب الفلاحين كما تعرفين...»

ونظرت توني اليه في شك وخشيت أن يصيبها شر منه وخاصة اذا لم يكن صاحياً وفضلت حرصاً على أمنها أن تعامله في برود وقالت:

«ماذا تريد يا دومينيك ؟»

وبدت عليه الحيرة ثم ابتسم وقال:

«معطف أن ، طلبت مني أن أحضره.»

واختلس النظر الى الردهة، وقال:

«أين الباقون؟»

«ذهبوا... إنتظر دقيقة، سأحضر لك المعطف.»

لم تكن تستطيع اغلاق الباب في وجهه، وعادت مسرعة معها المعطف والحذاء، ووجدت دومينيك يقف الى جوار المدفأة يدعك يديه معا، وكان قد أغلق الباب الخارجي، وقال:

«الجو شديد البرودة في الخارج ودافيء هنا في الداخل.»

ومدت يدها اليه بالمعطف قائلة:

«أشكر لي آن، وقل لها انني أسفة إذ نسيت، كان بوسعي أن أعيدها في وقت باكر بنفسي.»

ولوح بأصابعه تجاهها قائلا:

«لا؛ ينبغي ألا أهمل الرياضة، لهذا حضرت بنفسي، لكي يجد الطائر المحب فرصة للالتقاء بوليفته، كما فكرت.»

وصمتت توني فقد كان بحالة سيئة، ولكن صمتها أتاح له الفرصة ليتجرأ أكثر من اللازم، وقال:

«تعرفين عن أن المسكينة وقصة حبها، انها قصة محزنة، فالشاب الذي يحبها يعمل في مدرستها، ويحبان بعضهما بجنون، وللرجل زوجة....آسف يا حبيبتي!»

وقالت توني في عجل:

«أنظر يادومينيك ! ينبغي ألا تتحدث عن أن هكذا، وعد الى البيت الآن فالوقت متأخر.»

«لا... ليس متأخرا... لنجلس! ونتسامر!»

وقبل أن تدرك نيته أخذ معصمها وجذبها الى الأريكة بجانبه، وحاولت أن تنهض ، ولكنه أمسك بذراعها باحكام وقال:

«لا تذهبي يا حبيبتي! انتظري لحظة... وحدثيني اليّ... انت غاية في الجمال في هذا الفستان الأزرق، لا تتضايقي! أنا لست وسأتصرف بلباقة كاملة... هذا وعد.... أريد أن أخبر أي شخص بالخبر السعيد...»

وفكرت أنه من الأفضل أن تصبر عليه ولحسن الحظ ترك الحديث عن أن وسألته:

«أي خبر سعيد تعني؟»

«أستراليا! صديقي ذاهب اليها في الأسبوع المقبل وهذا ما كنا نحتفل به، وطلب اليّ أن ألحق به بعد فترة، انها فرصة كبيرة بعد أن أطمئن على أن وعند ذاك أسافر.»

«حسناً، سوف تخبرني بتفصيلات ذلك فيما بعد فالوقت متأخر الآن.»

ولكن دومينيك كان مصراً على الكلام، وظل لنصف ساعة يحكي عن أستراليا، وعن مزرعة الماشية التي تقع على مسافة ميل من أقرب مدينة، وعن المسكن وما حوله من أرض والثراء الذي يمكن تحقيقه والطرق الجديدة التي

يحتويها ثم قال:
«من السهل أن تشتري بيتاً خاصاً وسيارة انه بلد صحي يلائم تربية الأطفال كذلك.»
وأعلنت ساعة الحائط منتصف الليل، ووثبت توني وقالت:
«ياالله ! لم أكن أعرف أن الوقت تأخر الى هذا الحد، ينبغي أن تنصرف يا دومينيك، هيا انهض!»
ومدت يدها تساعده على أن ينهض من الأريكة الغائرة ولكن عندما وقف لم يتركها وأمسك يديها باحكام ونظر في وجهها قائلاً:
«انك يا توني جميلة وعاطفية ورائعة، وكل مايتمناه المرء فيك، ما رأيك في أن نذهب سوياً الى تلك الأراضي الغنية؟ المرء يحتاج هناك الى زوجة وسوف نسعد سوياً ونجد فرصة للعمل، إنني أعني ما أقول.»
«أنا واثقة من كلامك يا دومينيك.»
«وهل تقبلين اقتراحي؟»
«سوف أفكر...»
«إنك حبيبة... أعطني قبلة بتمنيات الحظ وبمناسبة عيد الميلاد!»
وجذبها اليه في رقة، وقال:
«عذبة!»
وحاول أن يقرب وجهه ثانية ولكنها ابتعدت عنه قائلة:
«لا ! يادومينيك يكفي!»
وصارعت لتجذب نفسها منه وهو يحاول أن يمسك بها، وضحكا وكأنهما في سن المراهقة وكانا يتجاذبان ويتدافعان عندما دخل غراي الى الردهة من مكان ما ووقف يرقبهما، وقال في اقتضاب:
«آسف اذ أفسد المرح ولكن الوقت قد حان لينفض هذا الاحتفال اذا كنا سنخرج في الصباح الباكر غدا يا أنطونيا!»
كان دومينيك قد ترك ذراعيه يسقطان عندما سمع صوت غراي ووقف

الآن يرقب ما يحدث في شيء من الغباء، وعندما أفاق من الدهشة أحس برغبة في أن يؤكد ذاته فقال:
«ما شأنك وهذا؟ نحن لسنا بحاجة الى أن نطلب منك الاذن بالسهر؟»
ونظر في تحد الى الوجه الصلب الذي يواجهه، ونظر اليه غراي في احتقار قائلاً:
«الأفضل لك أن تنصرف وإلا ألقيت بك خارجاً.»
وتكورت قبضتا دومينيك ولكنه لم يكن ليثير شجاراً، هكذا تصورت توني، وكان دومينيك يتنفس بصوت مسموع وقد إحمر وجهه وبدا شعره أشعث على جبهته، ووقف في غير اكتراث ويداه في جيوبه وبدا شيء من التهديد يقترن بذلك الصمت، وأحست توني بالخوف يسري في عروقها وخطت الى الأمام تقول:
«الوقت متأخر يا دومينيك وسوف تقلق عليك أن . أشكرك لأنك قصصت عليّ أخبار أستراليا، وأرى أن تذهب الآن، خذ المعطف، ها هو!! أسعدت مساء يا دومينيك!»
ورد قائلاً:
«اسعدتما مساء!»
وخرج وأغلق الباب خلفه في تظاهر بالشجاعة.
واتجهت توني الى الأريكة وهي تغلي من الغضب ازاء ما حدث، والتقطت كتابها واتجهت الى الدرج، لم تكن تنوي أن تحتك بغراي في حالته الانفعالية الراهنة وقد أحست بأن معه جانبا من الحق.
وجاءها صوته من الخلف يقول:
«لم يكن صاحياً لعلك تعرفين ذلك!»
والتفتت وقد أحست بأنه يحاول أن يبرر سلوكه وهو ما لم تعهده فيه من قبل لتقول في برود:
«ألست تبالغ؟ ربما التهب قليلا مع شباب الفلاحين، وليس ذلك سبباً يسمح لك

بأن تهدد بالقائه في الخارج.»

واقترب منها يقول:

«لم أكن أهدده لذلك ولكن لأنه كان يمسك بك بين ذراعيه.»

وعرفت أنه من الأفضل ألا تدخل معه في جدل ومع ذلك سمعت صوتها يقول:

«أرجو ألا تتخيل أنك وصي عليّ في هذا الشأن، أستطيع أن أعتني بنفسي جيداً ولم أكن في خطر مع دومينيك فهو شاب لطيف، أصيل، صريح ورقيق...»

«حقاً! شيء مثير!»

واقترب منها يقول:

«حسنا... اذا كنت لا تعترضين على توزيع مودتك في الأعياد فربما يكون لي أنا أيضاً نصيب، ولكن أحذرك! فأنا لست رقيقاً مثل صديقك دومينيك ولست لطيفاً بأي حال.»

واحتوى ذراعه خصرها وهو يقول:

«هل تريدين أن تعلني احتجاجك؟»

كانت في قرارة نفسها تريد أن تدفع به بعيدا وأحست بأن أطرافها فقدت المقاومة ورفعت رأسها وتقابلت عيناها في نظرة طويلة صامتة في عتمة الردهة الكبيرة. وأحست بموجة اثر موجة من البهجة تنبض فيها ووجدت نفسها تترنح. وعاودها التعقل من مكان ما خارج نفسها، وأدارت رأسها بعيداً وتصلبت وقالت:

«لا، لن أقبل أن أكون مجرد... مجرّد بديلة... انه شيء مهين وحقير»

وتجمعت فيها مشاعر الدفاع عن الذات، وتهدلت ذراعاه الى جانبه وقال:

«ياللسماء! عمّ تتحدثين؟»

وأجابته وهي تتراجع بعيدا عنه:

«إنك تعرف جيداً ما أتحدث عنه، إنك تريدني لأنني شبيهة زوجتك ولأنك تستطيع أن تقنع نفسك بأنك مازلت تضمها بين ذراعيك. كنت تحبها لدرجة كبيرة، وتريدني أن أشغل مكانها وتكرهني طوال الوقت لأنني لست هي.»

ونظرت الى وجهه وعندما رأت ملامحه خانها قلبها فجأة وقال في هدوء كامل:

«هل هذا هو ما تظنينه.»

«لقد جعلته واضحاً تماماً... انني أسفة اذا كنت قد واجهتك بالحقيقة، ولكن كان لابد أن أقولها.»

كان لا يزال ينظر اليها في دهشة كاملة، وخطر لها أنها أتته من مكمنه، وكان من حقها أن تزهو بالانتصار، ولكنها بدلاً من ذلك أحست بأنها صغيرة وبأنها مذنبة، وقالت من جديد:

«آسفة يا غراي!»

والتفتت لتصعد الدرج، ولم يحاول أن يستوقفها.

٧ ـ الغيوم تتبدد

وقفت توني في تمام الثامنة الا دقيقة من صباح اليوم التالي تنتظر في الردهة. كان منظرها الخارجي لا يختلف عن توني وارين التي ذهبت الى قصر الطرق البيضاء منذ ثلاثة أيام. ولكنها في أعماقها كانت تختلف بعض الشيء نسبة الى ثقتها بالنفس بالومضة الجديدة في عينيها. وسواء أرادت أو لم ترد تحولت الآنسة أنطونيا وارين الكاتبة المؤقتة على الآلة الكاتبة الى أنطونيا وارين التي تنتمي الى شركة واريتز المعروفة في بوند ستريت.

وظهر غراي من الباب المؤدي الى جناحه بعد ذلك بأربع دقائق، ونظرت اليه توني تتفحصه على ضيق منها ورأت فيه رجل الأعمال الذي كرهته دائماً بسبب غروره وتسلطه وارتكازه حول ذاته وعدم استعداده لتحكيم المنطق وقالت وهي تتظاهر بالصبر:

«صباح الخير!»

وارتفع حاجباه بعض الشيء، وقال:

«صباح الخير هل أنت مستعدة؟»

ونظرت الى ساعتها التي ضبطتها على الراديو وقالت في برود:

«ألم تقل اننا سنتحرك في الثامنة؟»

وزمجر بكلمات ربما كانت اعتذاراً وربما لم تكن كذلك وحمل حقيبتها الصغيرة وفتح الباب الأمامي وانتظر حتى تجتاز الباب قبله وأخذت ذلك على أنه نوع من التهكم فقد كان يجعلها تشعر بالامتعاض ويذكرها دائماً أنها وصلت الى ما

وصلت اليه بالخداع ولقد قال انها انتهازية وحدثت نفسها بأنه رجل متوحش وهي تسير أمامه في صباح ذلك اليوم الشديد البرودة من شهر ديسمبر/كانون الأول.

وكانت الرحلة الى لندن أمراً مقلقاً طفت خلالها ذكرى الانفجار العاطفي الذي حدث بينهما بالأمس كضباب لا يمكن اختراقه. وغيّر اتجاهات كل منهما نحو الآخر تماماً، كانا يتقابلان دائماً في شجار صريح والآن انتهى الشجار ومعه الصراحة، وبدا غراي مهذباً ومتعقلاً وسعدت توني بذلك، وأبدى نحوها من اللياقة والمجاملة مثل ما يبديه بنيامين وارين، وكان ذلك شيئاً غريباً على غراي.

وأسندت ظهرها الى المقعد الوثير بينما أخذت سيارة غراي تجتاز الطريق ميلاً بعد ميل وأحست بأنها أخطأت بما قالته له الليلة السابقة بدرجة لا يمكن له أن يغفر لها، وأطلقت تنهيدة طويلة، وقال غراي مستفسراً بدون أن يحول بصره عن الطريق:

«أنت بخير؟»

وردت في أدب:

«نعم... أشكرك!»

ولم يتبادلا أية كلمة بعد ذلك حتى توقفت السيارة أمام البيت القديم المألوف في هورنسي.

وأوقف غراي المحرك، وقال:

«ما الوقت الذي تحتاجينه لانهاء كل شيء هنا؟»

ووقع منها ذلك موقع الدهشة فقد كانت تظن أنها ستأخذ وقتها وتقيم ليلة وتعود وحدها الى قصر الطرق البيضاء في اليوم التالي،وحاولت أن تشرح له ذلك، ولكنه هز رأسه قائلاً:

«أوصاني بنيامين بك وسأفعل ذلك، هل تستطيعين أن تنجزي كل شيء قبل العصر؟»

وفكرت ثم قالت:

«نعم... أعتقد ذلك... ولكن سيكون عليّ أن أبحث عن حمّال وقد يستغرق ذلك بعض الوقت.»

«سوف أقوم بهذا عنك فلدينا حمّال يعتمد عليه وبوسعك أن تخبري ربة المنزل أن كل شيء سيتم نقله اليوم، آخر النهار أو غداً صباحاً... وعندما تكملين عملك هنا يمكنك أن تأتي الى بوند ستريت وسيكون البواب في انتظارك وقد أكون هناك بنفسي ولكن أرجو ألا يضايقك أن... تنتظري عودتي!»

وخطر لها أنه يتحمل فوق ما يطيق وهو يلتزم بذلك الأسلوب المهذب وقالت:

«أرجو ألا تقلق نفسك بسببي فأنا معتادة على تحمل مثل تلك المسؤوليات وأستطيع أن أعود الى القصور البيضاء وحدي.»

وقال:

«أنا لا أشك في مقدرتك ولكن ليس هناك داع للسفر بالقطار وحدك اذا ما دمت ذاهباً الى هناك في الوقت نفسه.»

ووافقت قائلة:

«حسناً، سأحضر الى بوند ستريت، حالما أكمل حزم المتاع هنا وأشكرك على المشقة التي تكبدتها من اجلي.»

وخرجت من السيارة وسارت في زهو الى الباب وكان مفتوحاً لحسن الحظ واستدارت لتغلقه خلفها، ولدهشتها الكبيرة رأت أن غراي خرج من السيارة واتخذ طريقه خلفها على الممر، وحدقت نحوه في استفسار قائلة:

«هل نسيت شيئاً؟»

«ربما! ألاتنوين أن تدعيني الى فنجان قهوة؟»

وأحسّت بالاضطراب ووجدت نفسها تهذي بكلام غير مفهوم وقالت:

«حسناً... نعم... إذا أحببت... ظننت... كان ينبغي أن أطلب اليك ذلك... ولكنني ظننت أنك على عجل تريد أن تنصرف.»

كانت تقف عند مدخل الردهة ويدها على مقبض الباب الأمامي وكان هو على بعد خطوة منها أسفل الدرج ونظر اليها غراي نظرة كادت تذيب عظامها.

وفتحت الباب مسافة أوسع وقالت:

«تفضل بالدخول اذاً... لدينا قهوة ولدينا حليب معلب، هل يضايقك أن تشرب القهوة بالحليب المعلب؟»

«كلا!»

وما كاد يدخل حتى ظهر وجه السيدة بلاث على باب سكنها وقالت:

«مرجعت اذاً يا آنسة وارين؟ سمعتك تدخلين. هل قضيت عيد ميلاد سعيد؟ ألم تحضر أمك بعد؟»

«مرحباً يا سيدة بلاث... أمي لا تزال في غلوشستر وأنا حضرت لأحزم متاعنا و...»

وأختفت الابتسامة عن وجه السيدة بلاث فجأة، وقالت:

«هل ترحلان يا آنسة وارين؟»

«نعم... أخشى أن أقول ذلك، كان بنيتي أن أزورك وأخبرك رسمياً اذ قررنا العيش مع أقاربنا في غلوشستر.»

وارتفع حاجبا السيدة بلاث في اكتئاب وقالت:

«حقاً؟ إنه شيء طيّب بالنسبة اليكما، حان الوقت لتنعما بالاستقرار في حياتكما! ولعلك تعرفين شروطي... فعليكما أن تدفعا ايجار شهر مقدماً وفقاً للشروط.»

وعلقت توني:

«نعم،بالطبع، دفعنا الايجار الى آخر ديسمبر/كانون الاول وسأعطيك شيكاً عن الشهر المقبل.»

«لا يا آنسة وارين! أريدها نقداً ما دمت تأخذين متاعك.»

ونظرت الى غراي فيما يشبه الاعتذار وواصلت:

«أنا أرملة آخذ جانب الحرص ولا يعنى ذلك أنني لا أثق بك يا آنسة وارين ولكن...»

وتدخل غراي قائلاً:

«هات قائمة الحساب وسأدفعها لك نقداً.»

«حسناً... هل تدفع الايجار عن الآنسة وارين؟»

«نعم...»

قالها غراي في اختصار وواصل:

«هيا يا توني!»

ووضع يده على مرفق توني يحثها على صعود الدرج الضيق وأغلق باب الشقة خلفها واستند اليها وقال:

«إمرأة فظيعة!»

واستدارت توني بعيداً بأمل ألا يكون قد لاحظ الدماء تتقع في وجنتيها وقالت:

«الجو بارد هنا... وسأشعل الموقد.»

وأشعلت عودين من الثقاب بدون جدوى وقالت:

«شيء مضحك! لا بد أن العداد لا يعمل... وضعت فيه خمسين بنساً قبل أن نرحل حتى نجد الغاز بوفرة عندما نعود.»

وعلق غراي:

«أعتقد أن صاحبة البيت كانت تستغل الغاز أثناء غيابكما.»

وبحثت في كيس نقودها عن قطعة من ذات الخمسة بنسات بدون جدوى.

وجاء غراي الى الطاولة من خلفها يقول:

«اسمحي لي!»

وأخرج قطعة النقود وتلامست أيديهما للحظة ارتعدت خلالها توني، وقال:

«انك تشعرين بالبرد! أين ذلك العداد ذو الثقب لتشعل النار؟»

«إنه تحت حوض الغسيل في المطبخ... في أسوأ مكان.»

كانت الغرفة الصغيرة لا تزال باردة، وركعت توني وفتحت خزانة تحت الحوض وحاولت عبثاً أن تجد الثقب وكانت تشعر بغراي يقف خلفها مما زاد من اضطراب يديها.

«دعيني أفعل ذلك.»

وركع غراي على الأرض بجانبها، وواصل يقول:

«تزحزحي!»

ودفعها دفعة خفيفة الى الجانب وأخرج قطعة النقود من حيث وضعتها، وكاد

رأساهما يتلامسان وهو ينحني ليضع القطعة في الثقب وأدركت الرائحة القايحة التي كانت تفوح باستمرار من شعره، وسمع صوت قطعة النقود تسقط في الصندوق، وقال:

«هكذا! ألا تعرفين أنني خبير في العدادات ذات الثقب؟»

وجلسا القرفصاء متجاورين وضحكت توني في اضطراب قائلة:

«ما كنت أظن أنك رأيت أحدها طوال حياتك.»

«ولكنني رأيتها بالفعل... أؤكد لك... ففي السنة النهائية من دراستي في كمبردج كنت أسكن في غرفة مؤجرة لا تختلف عن هذه كثيراً وكنت أستمتع بالحياة فيها... لقد كانت سعادة!»

«سعادة!»

لم تسمعه من قبل ينطق هذه الكلمة. كان في هذا الصباح شخصاً مختلفاً، كأنه قرر فجأة أن يغيّر أسلوبَ التعامل معها وسرت لذلك لأنه سوف يجعل حياتها الجديدة أكثر سعادة، لو تقبلتها كما يتقبلها بنيامين.

ونهض ووضع كلتا يديه تحت مرفقها، وساعدها على النهوض على قدميها، ولم تتلكأ يداه كما فعلتا من قبل، وقال:

«إنك خفيفة كالريشة والآن! جهزي القهوة وسأشعل النار لندفئ أقدامنا ونشرب القهوة.»

ولم تمض خمس دقائق حتى كانا يجلسان على جانبي الموقد وسمعا نقراً على الباب وفتح الباب على الفور لتدخل السيدة بلاث وهي تلهث بعدما صعدت الدرج ونظرت اليهما نظرة شك وقالت في خبث:

«أرجو ألا أكون قد قاطعتكما، ها هي قائمة حساب الآنسة واربن يا سيد...»

ولم يعطها غراي الفرصة لتعرف اسمه وأخذ يعد لها النقود بالعملة الورقية ووضعها على الطاولة، وأحضرت توني دفتر الايجار لتسجل فيه الدفع، وطوت السيدة بلاث النقود ووضعتها بعناية في جيب فستانها الأزرق وقالت بلهجة فيها شيء من اللطف:

«ومتى تخلين الشقة يا آنسة واربن؟»

«فوراً.»

ونظرت توني الى غراي الذي أومأ برأسه مؤكداً...

«اذاً... أعتقد أنكما لا تمانعان في أن تسكن الشقة أسرة صغيرة طلبت مني أن أوفر لها السكن في أقرب فرصة وحضرا للتو من مانشستر يبحثان عن سكن واسم الأسرة طومسون وسأرسلها لكما اذا كان ذلك مناسباً...»

كان السيد طومسون وزوجته في اوائل العقد الثالث من عمرهما وكان يبدو عليهما الأرهاق الشديد، وقال الشاب:

«كلانا يعمل في التعليم وسوف يبدأ عملنا هنا مع الفصل الدراسي التالي.»

وواصلت الفتاة الحديث

«إننا نقيم الآن مع بعض الأصدقاء في حي بايزووتر ولكننا لا نستطيع أن نثقل عليهم أكثر من ذلك، هل تخليان السكن اليوم بالفعل؟»

ونظرت الى توني والى غراي ثم ألقت نظرة حنين الى غرفة الجلوس الصغيرة، وقالت:

«إنها لطيفة يا دنيس الشيء نفسه الذي نريده ولكني أعتقد أن كثيراً من الاثاث لكما يا سيدة...»

وأكملت لها توني :

« وارين! الأثاث والسجاجيد ملك لصاحبة المنزل ولكن كل شيء آخر يخصنا، يخص أمي ويخصني، أقمنا هنا سنتين وسأترك لك الستائر اذا رغبت في ذلك، وسأخلي باقي الشقة حالاً اذا أردت أن تحضري حاجياتك.»

ونظر الزوجان الصغيران الى بعضهما، وقالت الفتاة الصغيرة في اكتئاب:

«ليس لدينا ما ننقله، حدث كل شيء فجأة وكنا نريد بالفعل أن ـ ننتظر بعض الوقت حتى نتزوج ولكن جاءنا عرض العمل لكلينا في المدرسة نفسها وحصلنا على رخصة الزواج، وهذا ما حدث.»

ونظر الزوج الى غراي وقال:

«انك تقدر كيف حدث ذلك؟»

وعلق غراي في سهولة:

«بالتأكيد.»

وقالت توني:

«كنا نشرب القهوة... هل تشربان معنا؟»

وسكبت فنجانين من القهوة، وشعرا بالسعادة الكاملة عندما عرضت توني ان تترك لهما الستائر والبياضات والغطاءات وسائر أدوات المطبخ وقالت:

«انكما تصنعان لي معروفاً اذا أخذتما هذه الأشياء، فلن نحتاج اليها ثانية.»

ونظرت الفتاة الى زوجها في شيء من القلق تقول:

«ما رأيك يا عزيزي؟»

كان من الواضح أنه يجري بعض الحسابات في ذهنه والتفت الى توني يقول:

«كم تريدين مقابل هذا؟»

وترددت وهي تضع في اعتبارها أنها لم تكن تريد أن تأخذ ثمناً على الاطلاق، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد أن تجرح كبرياءه، وقالت:

«لا أريد مبلغاً كبيراً... فأنتما توفران عليّ مشقة الحزم.»

وذكرت مبلغاً متواضعاً. وأحس الشاب بالارتياح، وقال:

«هذا مناسب تماماً.»

وقالت توني في ابتهاج:

«اذاً اتفقنا، إذهبا ورتبا امركما مع السيدة بلاث وسأحزم ملابسي وأدواتي الشخصية وسأتركها عند المدخل حتى يأتي الحمال لنقلها.»

وتهللت أسارير الفتاة، وقالت:

«تعنين أن بامكاننا أن نسكن على الفور؟ إننا على استعداد لدفع ايجار شهر مقدماً.»

والتفتت الى زوجها تقول:

«أليست هذه بركة من السماء؟ هيا نتكلم مع السيدة بلاث ونتفق معها على الايجار.»

وهرولا يهبطان الدرج، ونظر غراي الى توني يقول:

«لن يحتاجا الى جهد كبير فهذه المرأة العجوز لن تتردد في أن تطلب ايجار شهرين

بدلاً من شهر واحد.»

ونهض غراي ووضع فنجانه على الطاولة، ووقف يحدق في وجه توني، وأفاقت عليه يتفحصها، وأسرع نبضها وأحست بالفرح وكادت تلقي بذراعيها حوله لتعانقه فقد تغيرّ عالمها فجأة... لم تكن تعرف السبب... ربما لأنها رأت أسرة طومسون فرحة سعيدة، ربما لأن غراي لم يتركها وحدها، لم تكن تعرف.

وقال غراي:

«ما زلت طفلة برغم كل شيء.»

ونظر الى ساعته وقال:

«ينبغي أن أذهب لئلا يطول انتظار مارشا سأراك فيما بعد! سوف تحضرين الى بوند ستريت عندما تكملين عملك هنا؟»

وابتسم لها وانصرف مسرعاً بدون أن ينتظر الاجابة.

لم يكن بوند ستريت قد استعاد نشاطه بعد عطلة عيد الميلاد ولم يكن أحد من هواة مشاهدة واجهات المحال يتلكأ أمامها. فقط كان هناك رجال الأعمال يستحثون الخطى في معاطفهم التي تحميهم من الرياح الشرقية المؤذية. وبدا الشارع مهملاً من حيث النظافة فقد أخذ عمال النظافة اليوم عطلة ولم تكن مدينة لندن في أبهى صورها. هكذا فكرت توني وهي في طريقها الى معرض واريتز الذي كان مغلقاً للجمهور. كانت النوافذ مغطاة بشبكة الأمن المصنوعة من الصلب وكان الباب الزجاجي الثقيل مغلقاً ورأت البواب ينظف السجادة بالمكنسة الآلية بالداخل، وبدا أنه كان يتوقع حضورها وأسرع ليفتح لها الباب رافعاً قبعته.

«اسعدت صباحاً يا آنسة وارين.»

وخطت برشاقة الى الداخل تبتسم بينها وبين نفسها فقد أحست بفارق كبير بين المرة السابقة عندما حضرت تطلب عملاً وأغلق غراي الأبواب في وجهها وبين هذه المرة، لقد حدث تغيير كبير في أقل من ثلاثة أسابيع وأخذت حياتها مساراً جديداً تماماً.

وقال البواب:

«عاد السيد لورنس لتوه من الخارج وهو في مكتبه في الطابق العلوي وقد طلب أن تذهبي الى غرفته مباشرة.»

وشقت توني طريقها عبر المكان الأنيق وصعدت الدرج المغطى بالسجاد الى الغرفة التي تحمل اسم السيد ج.ر.لورنس ودخلت بدون أن تطرق الباب، وقالت في ابتهاج:

«ها قد حضرت طبقاً للتعليمات!»

وبدا على وجهه شيء من الارتياح، وقال:

«هل نجحت في حزم كل شيء؟»

ثم حدق فيها في شيء من الشك وقال:

«انظري يا توني! رجعت للتو من الخارج، واضطررت للذهاب الى رتشموند بناء على طلب امرأة بلهاء سرقت معظم مجوهراتها في عطلة عيد الميلاد ولم تستطع أن تدلي بأوصافها للشرطة ولم تكن متأكدة من أنها دفعت قسط التأمين الأخير وطلبت أن أقوم نيابة عنها بكل الاجراءات، كان زوجها يقوم بكل شيء نيابة عنها ولكنه مسافر الى هونغ كونغ الآن.

واستمعت إليه توني بشيء من المشاركة والفهم، وواصل حديثه:

«وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد وجدت عند عودتي أن السيدة جينز متغيبة بسبب ولم تصل كذلك الفتاة التي أرسلتها لي الآنسة بلاك ولهذا أجدني مضطراً الى أن أنجز كل هذا بنفسي ـ أسف... ولكنك ستضطرين أن تسافري الى الطرق البيضاء وحدك رغماً عني!»

وجذب الهاتف نحوه وقال:

«سأطلب الاستعلامات وأطمئن على مواعيد القطارات بالنسبة اليك و...»

وقاطعته توني قائلة:

«دقيقة واحدة! لاداعي لأن تقوم بذلك عني! فأنا أعرف كيف أحصل على مواعيد القطارات وأرتب سفري...»

وزال عنه التوتر شيئاً ما كأن لمسة من الأشراق أضاءت عينيه وقال:

«انني دائماً أنسى...»

ووضع الهاتف اليها، وقال:

«تولي أمرك اذاً»

وعاد يفحص البريد الذي أمامه. كان رقم هاتف مكتب استعلامات باذنفتون منقوشاً في ذاكرة توني، ورفعت السماعة، وتوقفت لحظة ثم أعادتها الى مكانها، وقالت:

«لو أنني بقيت معك، هل أستطيع أن أقدم أية مساعدة؟»

كانت هناك فترة صمت، ورفع رأسه قائلاً:

«تقصدين أنك يمكن أن تساعدي في العمل؟ في هذا؟»

وأجابت:

«بالطبع! فأنا معتادة على العمل وأنت تعرف ذلك!»

«ولكن لماذا تتعبين نفسك؟ لست بحاجة الى العمل الآن!»

«العم بنيامين يريدني أن أشغف بالعمل ولعل هذه فرصة للتعرف عليه.»

«ان ما أقوم به من عمل ليس مثيراً الى حد كبير فأنا أتعامل مع العقود والجمارك ومثل هذه الأمور»

«ولكنها أعمال ضرورية.»

«ما الذي تستطيعين فعله؟»

وابتسمت وقالت:

«لم تقرأ أوراقي التي أرسلتها لك الآنسة بلاك؟»

«تعرفين أنني لم أقرأها وتعرفين السبب...»

«حسناً... الاختزال بسرعة: جيدة، والنسخ على الآلة الكاتبة: ممتاز والفرنسية والايطالية بتقدير (أ) ومعرفة بالالمانية، أما مسك الدفاتر فلا أحسنه. هل يمكن أن أكون ذات فائدة؟»

وابتسم وقال:

«ومن أكون حتى أرفض مثل هذه الخبرة العظيمة؟ هيا الى العمل!»

ووجدت توني نفسها تعمل في سهولة اذ كانت طريقة غراي في انجاز العمل ملائمة تماماً وأعجبت بسرعة بديهته وحدة ذكائه، لم يكن يتردد في اتخاذ

القرارات واذا ما جدت مشكلة درسها في صمت واتخذ قراره بعد ترو ثم انتقل الى النقطة التالية. كان يراعي مشاعرها ويتوقف بين الحين والحين ليطمئن الى أنها تلاحقه واطمأن الى مقدرتها بعد وقت قصير وكرّس اهتمامه للعمل الذي بين يديه.

وفي الثالثة وخمس دقائق وضع آخر رسالة كتبها في سلة الرسائل وأسند ظهره الى الكرسي وقال:

«هل انجزت كل هذا؟»

وابتسمت توني وقالت:

«أعتقد انني أنجزت كل شيء، ما عدا كلمة واحدة في ذلك الخطاب الى وكيلكم بالبرازيل عن طرد من حجر الأوبال انها...»

وقرأ لها الكلمة وصححتها.

كان غراي من وجهة نظرها قد تغيرّ تماماً وأصبح جاداً ومتعقلاً، وسألته:

«هل تشتغل أحياناً في تشكيل المجوهرات؟»

وابتسم وقال:

«بيدي؟ ليس بمهارة كافية... عملت مرة بتوجيه جو لايتمر، وهو حرفي لا يبارى. كان والدي شريك بنيامين وكان يصرّ على أن أتعلم الحرفة من بدايتها وسأريك في يوم ما بعض القطع الممتازة التي صنعتها بنفسي. عندما توفي والدي اضطررت أن آخذ مكانه في العمل الذي يأخذ الآن كل وقتي.»

وحول الحديث فجأة يقول:

«متى أكلت لآخر مرة؟»

وأجابته:

«منذ الافطار.»

«وأنا أيضاً. اذاً ما رأيك في الذهاب الى كارلي للاستفسار فيما لعله يرسل الينا شيئاً؟ أعتقد أنه يدخر جهداً في تلبية طلباتنا فهو يعرف عاداتنا في الطعام... هل تعرفين الطريق؟»

كانت تتذكر الطريق الى مطعم كارلي وتذكرت أول مرة ذهبت اليه مع غراي... كان يحاول بكل جهده أن يجعلها تخافه ولكنه فشل، وصمدت لتأخذ

مكانها كعضو في أسرة وارين ولتصبح جزءاً من عمل الأسرة... واتسع عالمها فجأة الى عالم مشرق يحمل بين طياته أملاً غامضاً في شيء ينتظرها... لم تكن تعرف كنه ذلك الشيء، أو تستطيع أن تسميه.

ووجدت منعطفاً نحو الممر وصعدت درج المطعم كأنها على جناحين.

ووجدت جيوفاني في ركن من قاعة الطعام يدخن ويقرأ، تذكرها ووقف احتراماً لها عندما دخلت قائلاً:

«عفواً يا آنسة فالعمل ضعيف اليوم.»

وواصل يقول:

«غداء لشخصين في مكتب السيد لورنس؟ اهلاً... يا آنسة... سأخبر السيد كارلي.»

ولم تمض ربع ساعة حتى صعد جيوفاني الى المكتب في الطابق العلوي يحمل صينية مزدحمة بالطعام وقال معتذراً.

«مع تحيات السيد كارلي واعتذاره، فلا زال العمل في شبه اجازة.»

وأخلى غراي مكاناً للصينية على المكتب الكبير وقال:

«إنني واثق أنه طعام فاخر.»

وأومأ جيوفاني مبتسماً وقال:

«سوف أحضر القهوة على عجل.»

وانصرف.

وقالت توني وهي تقضم جزءاً من رغيف الخبز.

«لا أستطيع الانتظار، لم أكن أدرك أنني جائعة الى هذا الحد.»

وعلق غراي قائلاً:

«ألم أقل أنك طفلة؟ تأكدت من ذلك الآن.»

وساد صمت بعض الوقت قطعه غراي بقوله:

« توني ؛ أدرك الآن أنني أخطأت كثيراً في حقك، إنني آسف.»

واحمر وجهها، وقالت:

«لننسى ذلك ولا نتحدث عنه بعد الآن.»

وقال في لهجة جادة:

«هذا أكثر مما استحق.»

وابتسم وسكب الشراب في كأسين، ورفع كأسه وهو يقول:

«دعينا نشرب بأمل أن تستطيعي نسخ هذه الأوراق يا توني!»

وقالت وكأنها أصبحت من جديد الطابعة المتواضعة على الآلة الكاتبة:

«سأحصل الرضى يا سيدي!»

ورنّ جرس الهاتف على مكتب غراي، ورفع السماعة، يقول:

«نعم... نعم... أوه! أهلاً يا مارشا كنت أنتظر لاسمع أين أنت الآن؟ تلقيت مكالمة من كارين وهي مسرورة جداً بالحلي.»

وصمت لحظة ثم قال:

«أوه... حسناً! أنت تعرفين أن جو في غاية القلق ويحرص على أن يكون كل شيء على ما يرام، وفي موعده بالضبط لماذا لا تحضرين لنتحدث في الموضوع؟ حسناً! الى اللقاء.»

وأقبل على الطعام بشهية، وقال:

«هذه مارشا المصممة الجديدة الماهرة في مصنعنا، سوف تحضر خلال دقائق، انها في المصنع الآن تقدم بعض أفكارها الى جو. لديها اللباقة والموهبة وسوف تعتمد عليها الشركة كثيراً في المستقبل.»

وخطر لتوني أن مارشا هي نوع النساء الذي يميل اليه غراي. وعندما حضرت مارشا تأكدت من ظنها... كان مظهرها ملفتاً للنظر بدرجة كبيرة وهب غراي للقائها وحيتها بطريقة تدل على أنه تأثر بذلك المظهر قائلاً:

«انك تبدين رائعة يا مارشا كعهدي بك دائماً.»

واقتربت منه وهي تقول:

«أشكرك يا غراي! إنك لطيف للغاية!»

كانت تتلألأ في المكتب كلهب متقد بشعرها المائل الى السواد وعينيها الشفافتين ووجنتيها البارزتين وبشرتها السلافية الجميلة. كأنها مقبلة من عالم آخر، كانت هذه هي مارشا المصممة الجديدة في متجر وارينز.

وعرّف غراي الواحدة بالاخرى وأحست توني أنه لم يكن من العدل أن تواجه بهذه الفتاة الرائعة في الوقت الذي بدأت فيه تحتل مكانتها في واريتز.. كانت الهوة بينهما واسعة وعميقة في الوقت نفسه.

ولكن، مارشا لم تكن تعي أن هناك أية هوة بينهما، لقد صافحتها وابتسمت لها، كانت أسنانها بيضاء كلوز مقشور، وقالت:

«أنت أنطونيا! من أسرة بنيامين، حدثني عنك...»

ووقفت تفحصها للحظة ثم قالت:

«ولكنك جميلة، شعرك يشبه أوراق شجرة جميلة لدينا في البيت ولكنها لا تزرع هنا...»

وأخذت حفنة من شعر توني وصارت تشكلها، وتراجعت توني الى الخلف في دهشة، وضحك غراي قائلاً:

« مارشا تريد دائماً أن تشكل الناس، انها لا تستطيع أن تقاوم رغبتها في التصميم والتشكيل.»

«أوه... أنني أسفة!»

وعبرت عينا مارشا عن الأسف العميق، وواصلت:

« غراي على صواب، إنني أزج بنفسي كثيراً في شؤون الآخرين! أرجو أن تسامحيني!»

وبدا في لهجتها الصدق الكامل، وحدثت توني نفسها بأنها ينبغي ألا تقع تحت تأثير فكرة مسبقة عن مارشا وسارت الى المدفأة ونظرت الى المرآة البيضاوية في مكتب غراي، وقالت:

«أعتقد أنك على صواب يا مارشا. سأحاول أن أشكل شعري وفق إقتراحك!»

وجاءت مارشا خلفها تشكل لها شعرها الذهبي حسب ذوقها ووقفت خلفها كفنان يستعرض الوضع الأمثل مع عبارات الود والاستحسان وقال غراي:

«عندما تنتهيان تماماً... هناك موضوعاً خاصاً بالعمل أحب أن أناقشه وسيكون عليّ أنا و توني أن نعود بالسيارة الى المنزل الليلة.»

واستدارت مارشا تقول:

«أسفة يا غراي لقد شغلنا عنك وسأقدم لك التقرير حالاً...»

وسحبت كرسياً، وجلست الى جواره على المكتب وقالت:

«يبلغك جو أنه سيعمل طول الوقت حتى يكمل أفخر قطعة تعرضها وهي عقد الزمرد كما تذكر. إنه رائع في خطوطه وفي فخامته وصقله.»

وأمسكت توني بكرسيها، وقالت:

«أسفة اذ أقطع الحديث، ولكن أين أنسخ هذه الخطابات؟»

ونهض غراي وهو يوضح لمارشا:

« توني تساعدني على انهاء البريد، وجدت رسائل عديدة عندما حضرت اليوم ولم تكن السكرتيرة موجودة.»

وفتح باب غرفة صغيرة ملحقة بمكتبة، وقال:

«هذا المكان أفضل ما لدينا.»

ونظرت توني عبر الغرفة ووجدت طاولة لآلة الكتابة ومكتباً وكرسياً وآلة كاتبة وحاملة ملفات. وقالت:

«سأحاول!»

وأومأ غراي، وعاد الى مارشا بعدما أغلق الباب خلفه. وجلست توني الى المكتب وفتحت الأدراج لتجد ورق الكتابة والكربون وخطر لها أنها كانت ستعمل في تلك الغرفة عندما تقدمت للوظيفة كسكرتيرة ولكنها الآن الآنسة أنطونيا وارين ابنة اخ بنيامين وارين... وابتسمت... كان غراي سيعتبر اذ ذاك رئيساً لها، ولكنه الآن شيء آخر لم تكن تعرفه بالضبط.

وجاء صوت مارشا من الغرفة المجاورة تضحك بصوت يسحر من حولها ككل شيء آخر فيها، وجاء كذلك صوت آخر لم تكن سمعته من قبل، صوت غراي وهو يضحك ضحكة عميقة تبينّ أنه كان على سجيته تماماً يستمتع بصحبة مارشا.

ورفعت توني غطاء الآلة الكاتبة وجلست تنسخ الخطاب الأول...

٨ ـ لا خوف عليه من الليل

صحيح أن توني كانت طابعة سريعة على الآلة الكاتبة لكنها حاولت أن تبطىء من سرعتها حتى تنصرف مارشا. لكن الوقت مضى، وتحول الشفق الى ظلام، ولم تستطع أن تنتظر لفترة أطول فجمعت الرسائل، وأخذتها الى غرفة غراي ووضعتها على المكتب قربه، وقالت:

«ها هي الرسائل يا سيدي تنتظر توقيعك.»

قالتها بطريقة فيها شيء من الاشارة انها الآن الآنسة أنطونيا وارين وليست مجرد طابعة صغيرة...

وجمع غراي كومة الرسائل أمامه ورفع بصره مبتسماً، وقال:

«أشكرك يا توني! لقد أديت خدمة عظيمة.»

ونهضت مارشا قائلة:

«لا بد أن أنصرف حتى لا أؤخر رحلتكما، الى اللقاء يا غراي! سأراك قريباً.»

ووضعت يدها على ذراعه، وقالت:

«أنت تعرف مكاني؟»

وأجاب غراي:

«نعم، انتظري سأوصلك! أعتقد أن بيتس انصرف اذ طلبت اليه ألا ينتظر.»

وأخذت حقيبة يدها، وقالت:

«الى اللقاء يا آنسة أنطونيا وارين!»

ولدهشة توني، انحنت مارشا الى الأمام وقبلتها قبلة سريعة وانتشر شذى

عطرها الساحر في المكان، وقالت:

«لا بد أن نرى بعضنا بعضاً كثيراً. قال لي غراي ـ انك ستنضمين الينا! هيا يا غراي! اقفل ابوابك الضخمة خلفي!»

وعاد غراي يعلو وجهه البشر والسعادة وقال:

«سوف يسير كل شيء على ما يرام! سيضم المعرض أزياء المصممة كارين لايتر وحلي وارين ولا بد أن تشهديه يا توني فقد ترغبين في شراء شيء منه.»

وابتسمت وقالت:

«أنا أشتري من معرض أزياء! هذا يبدو خيالاً!»

«بل إنه عين العقل في نظري! فجسمك يلائم أزياء لايتر تماماً.»

قالها وهو يقرأ أول رسالة مما طبعته توني.

«لم أقل ان الأزياء لا تناسبني... ولكن المشكلة مشكلة توفر النقود لشراء هذه الملابس...»

وقع الرسالة وهو يقول:

«سوف يصبح هذا أمراً عادياً في حياتك خاصة اذا إنضممت الى الفريق كما قالت مارشا.»

وأحست توني بالاحباط فلم يكن غراي يبدي اهتماماً فعلياً بالموضوع ولم تستغرب لذلك فقد شغلته مارشا طويلاً، ووقفت تنتظر حتى وقع الرسالة الأخيرة، ولزمت الصمت وهما يغادران غرفة المعرض ويخترقان الشوارع تحت الصقيع الى مرأب السيارة، وقال:

«سوف نمر بالمصنع أولاً فلدي مسائل أريد أن أحسمها مع جو ثم نتجه مباشرة الى الطرق البيضاء لنصل مع وقت العشاء.»

كان المبنى القديم الذي يضم مصنع وارين أصغر بكثير مما تخيلته توني وبدا الطابق الأرضي خالياً بعد أن تكرر هجوم اللصوص عليه. فقد سدت النوافذ بألواح خشبية وطبعت بعض الشعارات على الجدران غطاها الطين في أجزاء منها...

وأوقف غراي السيارة ونظر الى المبنى المتآكل قائلاً:

«كأنه مقلب نفاية! من يصدق أن هذه كانت منطقة محترمة عندما جابها وارين لأول مرة، بنيامين يفكر في نقل المصنع برمته الآن الى الطرق البيضاء.»

وعلقت توني:

«فكرة معقولة! ولكن هل يوافق العمال على ذلك؟»

«جو موافق وزوجته تحبذ الحياة في الريف، ولكن بعض العمال، الأخرين قد يعترضون فاذا توفر لهم المسكن ربما يزول الاعتراض، أعتقد أن في هذا ما يثير اهتمامك لأنه مجال للعمل في الرعاية الاجتماعية.»

وقالت في هدوء:

«يوافقني.»

ولم تطلب في هذه المرة أن تبقى في السيارة حتى ينهي عمله مع جو كان مظهر الشارع الخالي يوحي بالخطر، وصعدا الدرج ـ الخشبي المتهالك، ووجدا لايتمر وحده في المصنع كالمرّة السابقة عندما أحضرها غراي الى المكان، وانشرح صدره لرؤيتها . وأخرج العقد الذي كان يقوم بانجازه لمعرض كارين لاين. وما كادت توني تراه حتى أخذت بجماله، كانت حبات الزمرد تتلألأ كبحيرات خضراء عميقة في قمة جبل. وتترابط مع بعضها البعض بكتل أصغر من البلاتين المرصع بالماس، ربط بينها جميعاً مشبك صمم بطريقة رائعة تصوّرتها من تصميم مارشا.وأمسك جو بيدها واحاطها بالعقد ثم اطفأ كل الأضواء في المصنع وصارت الحلى تتلألأ وتلمع، وأخذت توني تحرك يدها في اتجاهات مختلفة معجبة بالعقد الجميل، وقالت:

«إنه رائع، ومتقن للغاية وفاخر.»

ورفعت رأسها وابتسمت لجو قائلة:

«ألا تشعر بالزهو الكبير وبالنجاح لأنك تستطيع أن تصنع شيئاً كهذا؟»

«هذه هي الحقيقة يا آنسة، إنك تفهمين شعور المرء بالنجاح! ألا تريدين أن تصبحي فنانة يا آنسة وارين؟»

وهزت رأسها قائلة:

«كنت أتمنى ذلك، وكان والدي فناناً، وكثيراً ما حدثني عن السعادة التي يحس بها

الانسان عندما يبدع شيئاً؟ هل لي أن أحضر في وقت لأشاهدك وأنت تعمل؟»

«يكون لي الشرف يا آنسة وارين.»

وأخذت توني تتجول في المصنع بينما أخذ غراي يناقش مع جو مسائل تخص العمل.

وقالت وهي تنزل الدرج الخشبي المتهالك بعد ذلك بدقائق:

«أجدني أفهم الآن ما تعنيه عن التقاليد وأصول الحرفة والاتقان.»

وألقى عليها نظرة وهو يقول:

«لن تحتاجي الى مزيد من الاقناع لتحتلي مكانك الذي تستحقينه عن جدارة في الشركة.»

وأجابت:

«إنني أتطلع الى ذلك.»

وفتح الباب الخارجي، وتقدم الى الرصيف وتوني تسير خلفه مباشرة وأحست به يتصلب وهو ينظر حوله ثم يصيح:

«اختفت! السيارة اختفت!»

ووقف ينظر على طول الطريق وقد سمح لغضبه أن يعبر عن نفسه بطريقة لم تعهدها توني من قبل... لم يكن في الطريق سوى جماعة من الغلمان ولم يكن هناك أثر للسيارة وعبر الطريق وأخذ يتحدث اليهم. وعندما رجع كان وجهه قلقاً وقال:

«شاهدوا ثلاثة رجال يركبون السيارة ولكنهم لا يستطيعون وصفهم ويعتقدون أن أحدهم كان يحمل حقيبة، هذه المسألة لا يحلها الا الشرطة، سوف أجري بعض الاتصالات.»

كانت هناك مكالمة طويلة مع الشرطة من المصنع ولم يكن بوسع توني وجولايتمر الا أن ينصتا وينتظرا، وعندما أنهى المكالمة قال:

«ألم تحضر سيارتك معك يا جو؟»

«آسف يا سيد غراي، أخذتها زوجتي اليوم الى السوق.»

«اذن سأسير الى المحطة، ذلك أسرع من انتظار تاكسي، فالشركة تريدني أن أوقع

على المحضر وأن أعطي مزيداً من التفصيلات.»

ونظر الى توني في ضيق:

«لا داعي لأن أشقيك معي! ابقى هنا في رعاية جو وسآمر عليك عندما أكمل المهمة مع الشرطة.»

وعندما إنصرف أخذت وجو يناقشان المشكلة بالتفصيل، وقال جو:

«إنه من المحتمل أن تعثر الشرطة على السيارة متروكة في مكان ما... عندما يحقق الأشرار غايتهم منها.»

«انهم يستخدمونها لتنقلهم الى مكان ما ثم يتركونها، وهذا يحدث باستمرار.»

وأضاف في أكتئاب:

«هناك مكان على الطريق أغار عليه الأشقياء ثلاث مرات في السنة الفائتة.»

وتنهد وقال:

«أتمنى أن أنتقل من لندن! انني لا أحرص على الاقامة فيها يا آنسة وارين.»

ونظرت توني عبر الغرفة وقالت:

«هل حدث سطو عليكم في يوم من الأيام؟»

وابتسم جو قائلاً:

«لا خطر من ذلك! فتوجد هنا أشياء كثيرة مغرية ولكنها لا تستحق الجهد الذي يبذل للحصول عليها، والسيد غراي رجل حاذق يستخدم أحدث اجراءات الأمن،وسوف تندهشين عندما تعرفين الاجهزة التي أحضرناها بما فيها تلك الأجهزة الألكترونية. ليتهم يجربونها فسوف ينكشف أمرهم قبل أن يضعوا أيديهم القذرة على أية ماسة أو قطعة من الذهب.»

وهز رأسه في أسف قائلاً:

«انه عالم قاس اليوم يا آنسة وارين، ولكن السيد غراي يشق طريقه، انه يتتبع كل ما يحدث دقيقة بدقيقة!»

ومضت قرابة الساعة قبل أن يعود غراي، كان جو خلالها قد أعد الشاي، وكان هو وتوني يشربان الشاي ويأكلان البسكويت... وكان جو يتحدث عن الحديقة التي يحلم بإنشائها عندما يذهب الى غلوشستر.

ونهض جو عندما دخل غراي وسأله:

«أية أخبار عن السيارة يا سيد غراي؟»

كان غراي يبدو منهكاً ويشعر بالأحباط، وهز رأسه وقال:

«أعطيت اوصاف السيارة للشرطة. ولكن الأمل ضعيف في أن يجدوها الليلة، حصل سطو على مصرف في ضواحي لندن ولذلك فان نبأ إختفاء سيارة لا يحتل أهمية كبيرة.»

وهز كتفيه، وقال:

«سيكون علينا أن ننتظر لنرى!»

وقال جو:

«هل هناك شيء ثمين في السيارة؟»

«لا شيء بصفة خاصة سوى...»

ونظر الى توني:

«حقيبة ملابسك وأخشى أن تكون قد ضاعت!»

وقالت مؤكدة:

«لم يكن فيها شيء مهم.»

وحاولت أن تتذكر محتوياتها، وفي أي حال فسوف يذهبان الى الطرق البيضاء الليلة، ولكن كيف يذهبان وقد وقع ما وقع... واذا لم يذهبا... فأين يقضيان الليل؟ ونظرت الى غراي وكانت عيناه تتجولان في المناضد وفي الخزانات وظنت أنه كان يطمئن الى سلامة أجهزة الأمن وتفحص الخزانة المصنوعة من الصلب وقال:

«كل شيء محكم تماماً يا جو؟ حسناً، إذاً نخرج... هناك تاكسي ينتظر بالخارج وسنوصلك الى بيتك.»

وأنزلا جو في محطة فكتوريا، وسألت غراي عندما رأت التاكسي يأخذ طريق قصر بكنغهام.

«الى أين نذهب؟»

«الى شقتي فعندي استراحة في شيلسي. وهناك نأكل ثم ندرس الأمر.»

وتوقف التاكسي أمام بيت قديم عند جسر شيلسي. وكان كل شيء ساكناً... ترف في كل ركن ووعاء كبير للزهور الزنبقية الزرقاء يفوح عطرها، وحاولت توني أن تقارن بينها وبين مسكنها في حي هورنسي ولم تجد وجهاً للمقارنة.

وحملها المصعد الى الطابق الثاني وفتح غراي الباب رقم ١٧ ـ لتدخل توني أمامه، وخلع معطفه وألقى به على أحد الكراسي وقال:

«خذي راحتك... غرفة الحمام هناك، تقابلها غرفة النوم، آسف لضياع حقيبتك.»

وواصل في شيء من الحيوية:

«أول ما نحتاجه الطعام، إنني على ثقة أنك جائعة مثلي، كانت وجبة كارلي كافية ولكنها لم تشبعني، انهم يقدمون شواء ممتازاً هنا حسب الطلب، واذا وافقت فسأنزل الى الطاهية لأرى ما يمكن أن تقدمه الينا.»

وهزت كتفيها، وقالت:

«كما ترى، انني بين يديك حالياً.»

وسار الى الباب ثم رجع، وقد بدا في عينيه الخبث من جديد وسألها:

«هل تعنين ذلك حقاً؟»

ولم ينتظر الاجابة:

وبدأت تستطلع المكان، كانت شقة صغيرة ولكنها فاخرة وحديثة كانت غالية الثمن لأحد رجال الأعمال في لندن له بيته في الريف، وتجولت في الشقة في شيء من العصبية وأطلت على المطبخ كان كل شيء يكفي فقط لاعداد الطعام أو الشراب لشخصين، وكان بوسعها أن تتخيل فتاة أنيقة مثل مارشا تأتي الى هذا المكان بعد حفل موسيقي أو مسرحي لتصنع الأومليت وتنادي في مرح من خلال الردهة لغراي الذي يتمدد على أحد الكراسي الوثيرة في غرفة الجلوس، وكان الحمام الأزرق بلون تبرز فيه قطع معدنية لامعة، أما غرفة النوم فكانت ملساء وفيها سرير يتسع لشخصين، وخرجت على الفور وأغلقت الباب باحساس زوجة الرجل ذي اللحية الزرقاء في القصص.

غرفة واحدة للنوم فقط اذاً فقد حسم الأمر وليس ثمة مجال لقضائها الليل معاً في ذلك المكان ولا بد أن توضح له ذلك حالما يعود!

واغتسلت واتجهت الى المرآة لتنظم شعرها، ووجدت منديلاً على الرف الزجاجي، كان منديلاً مطرزاً واستطاعت أن تميز رائحة العطر الساحر الذي كان يفوح من مارشا قبل أن تقرأ الحرف (م) على أحد زوايا المنديل مارشا، حسناً، وهزت كتفيها، وأخرجت المشط من حقيبة يدها وأخذت تمشط شعرها بعدم اكتراث.

ووجدت في حقيبة يدها غطاء للرأس من النايلون يحكم على الرأس بخيط أسود ناعم من الحرير، وجذبت الخيط فجأة وشكلت شعرها على هيئة ضفيرة وربطته بالخيط بقسوة ثم وقفت تتفحص النتيجة في المرآة، وتذكرت صورة أخذت لها وهي في الصف الخامس الابتدائي... كانت وثيقة الصلة بمنظرها الآن، وتأكدت أن وجه الشبه بينها وبين ابنة عمها ميدج أختفى تماماً بتلك الضفيرة، وهكذا لا يجد غراي أي شبه بينها وبين الزوجة التي فقدها.

وعادت الى غرفة الجلوس لتجد غراي عاد وقد وقف تحت مصباح يقلب في صحيفة،وبدت عليه الدهشة عندما لاحظ تسريحة شعرها الجديدة ولم يعلق

وواصل النظر في الصحيفة يقرأ العنوان الرئيسي:

«سطو على أحد البنوك، البوليس في مطاردة بالسيارات، رجل قتيل.»

وهز غراي كتفيه قائلاً:

«صدق ظني... لا أمل في العثور على السيارة الليلة.»

وألقى بالجريدة جانباً وقال:

«سنضطر الى قضاء الليلة في المدينة يا توني!»

وعلقت قائلة:

«وهل بامكاننا ذلك؟ أليس هناك قطار يوصلنا!»

واستفسر قائلاً:

«وهل أنت متضايقة؟ قلت انك بين يدي على ما أذكر!»

وتعثرت في الكلام قائلة:

«لم أكن أقصد...»

«لم تكوني تقصدين؟ سترى! ما رأيك في أن نخلع القناع؟ لا أحب أن تظن

السيدة وود أنني اعتديت على قاصر.»

وقبل أن تدرك نيته امتدت يده الى شعرها، وجذب الخيط وتهدل الشعر حول كتفيها كأنه ستان خمري اللون ولمسه غراي بأصابعه قائلاً:

«هكذا أحسن! أرى أن أتصل وأخبر بنيامين بما حدث.»

وأخذ الهاتف من مكانه وجلس على أحد الكراسي الوثيرة ووضع الآلة على ركبتيه وبدأ يطلب الرقم.

ووجدت توني نفسها ترتعد بانفعال الغضب، كيف يجرؤ على ان يعاملها كما لو كانت قطة ضالة وقعت بين يديه وصارت ترقبه وهو يجلس وقد انحنى رأسه القاتم على التليفون وتمددت ساقاه وبدت عليه الثقة الكاملة في استرخاء، ولم تكن الاجابة بعيدة عن ادراكها.

اعترف لها أن وجه الشبه بينها وبين ميدج كان يقلقه في اول الأمر، وخلال عطلة عيد الميلاد وفي الوسط العائلي حاول أن يقنع نفسه بأنها ميدج وأنه حصل على زوجته من جديد، ولكن ذلك كله تغيّر الآن فقد عاد الى لندن في جوه الحقيقي يدير عملاً معقداً ويكاد يكون وحده، ولقد أبدى سعادته بمعاونتها في تلك الأمسية، لم يكن يحلم بخيال ميدج هنا وكانت أمامه الحياة الحقيقية تتمثل في مارشا التي كانت تستطيع أن تشبعه من كل الوجوه.

ورفعت توني ذقنها وتصلّب ظهرها! ان هذا ما أرادته! لن تحتاج الى مصارعته مرة أخرى.

وجاءها صوت من الداخل يقول ـ أو انك تصارعين نفسك. وكان الصوت خفيضاً أمكنها أن تتجاهله.

كان غراي قد توصل الى الطرق البيضاء، وكان يحادث بنيامين وشرح له كل شيء عن السيارة المسروقة، وقال:

«وهكذا فانني أخشى يا سيدي ألا نستطيع العودة الليلة فليس أمامنا من سبيل البقاء، وبصراحة فانني لا أريد القيادة الليلة وخاصة انني سأضطر الى العودة في الصباح، كان يوماً حافلاً. أنطونيا؟ انها بخير عاونتني بدرجة كبيرة في المكتب، نعم أوافق تماماً! نعم، سأفعل ذلك! هذا ما كنت أفكر فيه! نحن الآن في شقتي،

وسنتناول العشاء.»

وضحك، وقال:

«أعد بأنني سأعتني بها، هل تحب أن تكلمها بنفسك؟»

ومد السماعة الى توني وأخذتها منه وهي تقف على أبعد مسافة يسمح بها السلك، وسمعت صوت بنيامين يعلن أسفه على سرقة سيارة غراي وقال:

«من المؤسف أن أملك ليست هنا حتى تكلميها، خرجت الى الكوخ الآن لتحضر بيضاً للفطور، سوف أطمئنها عندما تحضر! هل أنت بخير تماماً يا أنطونيا؟»

نعم إنني بخير.»

وأحسّت بذراع غراي يحيط بخصرها ويشدها لتجلس على ذراع كرسيه.

«قال لي غراي انك ساعدته في اعمال المكتب...»

«بقدر ما أستطيع.»

كانت ذراع غراي لا تزال تمتد على طول ذراع الكرسي خلفها.

«حسناً جداً يا ابنتي العزيزة، أشعر بالاطمئنان الكامل عليك طالما أن غراي هناك يعتني بك وأرجو أن تخطرانا بما يحصل.»

وعدته بذلك، وودعته، واعطت السماعة لغراي الذي بدأ يتحدث عن بعض تفاصيل العمل مع بنيامين. وكانت تود أن تنهض ولكن ذراعه الحازمة أمسكت بها وحاولت أن تتملص بلا فائدة، ولم يكن بد من أن تجلس حيث هي حتى انتهت المكالمة.

ووضع الهاتف على الأرض، وقالت له:

«هلا تركتني أذهب؟»

وطقطق لسانه وقال:

«كنت أظن أننا صرنا أصدقاء، لم أكن أتصور أنك تكرهينني الى هذه الدرجة!»

وتعثرت تقول:

«ولماذا تظن أنني أكرهك؟»

وسادت فترة صمت طويلة ورفع بصره اليها، وفي عينيه شيء من التأمل ثم أطلق سراحها ونهض على قدميه وقال:

«لماذا أظن أنك تكرهينني؟ لا أعرف! هذا ما أحس به.»

وبلعت توني ريقها، لم تكن تريد شيئاً سوى أن تغوص بها الأرض وتختفي عن الأنظار.

وأحضر لها كأساً من الشراب وكانت لا تزال تجلس على ذراع الكرسي وأحست بأنها لن تستطيع أن تنهض ثانية.

وفتح باب الغرفة ودخلت امرأة جميلة شعرها أبيض تحمل صينية وقالت:

«هل أضع الصينية على الطاولة يا سيد لورنس؟ الشواء على النار ولن يحتاج أكثر من دقائق قليلة.»

وحملت الصينية عبر الغرفة مبتسمة لتوني، وترددت بعض الشيء، وأغمضت وفتحت عينيها ثم وضعت الصينية على المنضدة بطريقة مفاجئة نوعاً. كانت توني قد تعودت على ذلك من أولئك الذين كانوا يعرفون ميدج.

وقال غراي:

«شكراً يا سيدة وود انك معجزة. توني! اليك مديرة المنزل الممتازة التي تحول الاستراحة الى بيت كامل، وهذه هي الآنسة واربن يا سيدة وود، إبنة أخ السيد بنيامين وسوف تنضم الى الشركة.»

وتمتمت السيدة وود بكلمات مناسبة، وصافحت توني ثم خرجت وهي لا تزال تحت تأثير الارتباك.

وعلقت توني:

«انها تبدو انسانة لطيفة!»

«نعم انها كذلك!»

واسترخى غراي على كرسي في الجانب الآخر من الغرفة وأخذ صحيفة المساء.

وفردت توني المفرش ونظمت أدوات المائدة ثم عادت ترتشف شرابها ولم يرفع غراي بصره عن الصحيفة، حتى عادت السيدة وود ومعها الطعام، وعندما صارا وحيدين في الغرفة نهض وأحضر كرسياً لتوني وقال:

«آمل أن يعجبك.»

وقالت توني في أدب:

«إنه يبدو لذيذاً.»

وجلسا يأكلان في صمت، كان اللحم رقيقاً وجيد الشواء ولكن توني لم تكن لها شهية للطعام وزاد ضيقها شيئاً فشيئاً حتى جاء دور الأناناس، وتخيلت أنها تسمع نفسها تأكل كأنها شاة تقضم العشب في المرعى.

وقال لها غراي:

«شيئاً من الجبن؟»

وارتعدت قائلة:

«لا! شكراً.»

ثم التفتت لتسكب لنفسها القهوة من الغلاية الكهربائية.

وعندما أكملا الطعام، قام غراي بجمع الأطباق وحملها الى مدخل الشقة ودق الجرس لينادي مديرة المنزل وقال:

«كانت وجبة ممتازة يا سيدة وود، أشكرك! وضعت الفضلات في الخارج لتجميعها في الوقت المناسب.»

واسترخى على أحد الكراسي بينما جلست توني في قلق على حافة كرسي آخر، وسألها غراي:

«هل تشعرين بالتعب؟»

وقالت على عجل:

«لا! إنني بخير...»

ونظر اليها وهو يفكر قائلاً:

«اعتقد أننا ينبغي أن نفكر في ترتيب مبيتنا الليلة، هناك سرير واحد لشخصين. هل نتشارك فيه؟»

«بالقطع لا!»

«هذا ما توقعته.»

واستغرق في تأمل ثم واصل يقول:

«للأسف! إذاً علينا أن نفكر في شيء آخر، ما رأيك لو نمت أنت على السرير ونمت أنا على الأرض هنا؟»

وقالت تونى:

«لا»

«ألا تثقين بي؟»

وقالت للمرة الثانية:

«لا»

ورجع الى كرسيه وقال:

«إنك فتاة لا تعرف الا أن تقول لا»

وخفض بصره الى السجادة ثم رفع بصره اليها ينظر في عينيها وقال:

«هل تقبلين أن تتزوجيني؟»

وقالت في لهجة خشنة:

«لو كانت لعبة فإنني أظنها لعبة سخيفة!»

وكرر في صوت عميق:

«إنها ليست لعبة...»

ووضعت يدها على حلقها وقالت:

«لا يمكن أن تكون جاداً؟»

ولكنها رأته جاداً... ولو قالت ـ نعم... فلن يكون عليه أن يبحث عن مكان للمبيت! بل سيكون في وسعه أن يتصرف كما يحلو له بدون أن يغضب بنيامين، وأخذ قلبها يخفق في قوة لقد ذهب الى حد الزواج اذن ليعيشا في عالم من الخيال تلعب هي فيه دور زوجته الراحلة ميدج.

كان يرقبها، وخيل اليها أنه كان يقرأ أفكارها، وقال في هدوء:

«إنني جاد تماماً في طلبي!»

وحدقت فيه بلون شحب وجهها وقالت:

«اذن... لماذا؟»

وانحنى الى الأمام في كرسيه وقد تشابكت يداه في ارتخاء واستقرت ذراعاه على ركبتيه كأنه يشرح نقطة في مناقشة من مناقشات العمل، وقال:

«اعترف انني لم تكن لدي أية نية للتفكير في الزواج من جديد الى الأبد ولكن

منذ ظهورك تغيرت الأوضاع شيئاً ما... إنني أجد بعض المزايا لكلينا اذا ما تزوجنا»

«مزايا! لم أسمع في حياتي شيئاً مثل هذا، كأنه يصدر عن انسان يخلو من الاحساس!»

وابتسم لها تلك الابتسامة الضيقة المدمرة التي أحالت عظامها الى ماء قائلاً:

«انك تعرفينني يا طفلتي العزيزة بالتأكيد بدرجة لا يصح لك معها أن تتهميني بالخلو من الاحساس،اصبري معي! انني أحاول جهدي أن يظل الموضوع في أيدينا، كل ما أستطيع عمله في الوقت الحاضر أن أبقى في الجانب الآخر من الغرفة ولو اقتربت منك أو لمستك ثانية، حسناً، انني لا أقول انني استطيع أن أتصرف باستمرار هكذا، كانسان مهذب تماماً»

وشهق نفساً عميقاً، وقال:

«تعرفين جيداً أنني لا أخلو من الاحساس يا توني! وأعتقد أنك أنت الأخرى لست كذلك»

واحمرت وجنتاها، وشدت عينيها بعيداً عن عينيه المحدقتين تجاهها وقالت في صعوبة:

«إننا لا نتحدث اللغة نفسها. لا أستطيع أن أتزوج بدون حب!»

وقال في صمت غريب:

«حب!هل تقولين لي ماذا تعنين بالحب؟»

ولم ترفع عينيها، وقالت:

«ولماذا أقول انك لن تفهم؟»

«حاولي! وانظري!»

كانت هناك فترة سكون طويلة تركزت فيها عينا توني على يديها المتشابكتين في تصلب أمامها ثم قالت:

«ربما يعني الحب شيئاً مختلفاً من وجهة نظر المرأة، انني لا أريد أن أحب فقط من أجل...»

وتهدج صوتها في عجز عن الكلام... ولم تتكلم... ولم يحاول أن يقدم لها أية

مساعدة.»

وواصلت بعد برهة تقول في لهجة أكثر حزناً:

«أخبرني عمي بنيامين عن حجر كريم يمكن أن يصنع هذه الأيام، انه يشبه الماس تماماً ويخرج النار التي تخرجها أية ماسة طبيعية ولكنه في الواقع ليس الا تقليداً ولو تزوجتك لكان الأمر هكذا. ستكون هناك النار بالفعل، ولكن لا يوجد تحتها شيء ثمين، مجرد مظهر خداع انني آسفة، ولا أستطيع أن أشرح أفضل من ذلك.»

وطال الصمت الذي أعقب كلماتها، ثم طال، وأصبح كثيفاً وصلباً وتجسد كأنه شيء محسوس... ونهض غراي وهو يهز كتفيه يقول:

«شرحت جيداً والآن فان أنسب شيء لي هو أن أنسحب، وأترك لك الشقة الليلة.»

لم تكن تعرف ما تتوقعه من وراء تلك المجابهة؟ الغضب؟ ربما... أو الاغراء الذي يتخذه الرجال لاقناع النساء أو الكبرياء والثقة بالنفس التي تجعله يتخذ من جاذبيته التي لا تقاوم سنداً في الحصول على ما يريده لم تكن في بادىء الأمر بالتأكيد تتوقع ما حدث، شبه تقبل لجوابها في غير اكتراث، وأحست بالدموع تخزها في مؤخرة عينيها... ما الخطأ الذي حدث ليجعل الأمسية تنتهي تلك النهاية... الى شيء يقترب من العداوة التي كان يبديها نحوها أول الأمر؟

ودخل غرفة النوم ثم خرج منها ومعه حقيبة تشبه تلك التي يحملها المسافرون على الطائرة وقال:

«احتفظ بهذه الحقيبة دائماً للطوارىء.»

وعلقت:

«ولكني لا أستطيع أن أخرجك من شقتك بهذه الطريقة، هل يمكن أن أنتقل الى أي فندق؟»

وأجابها:

«في هذا الوقت من الليل؟ وليس معك أي متاع؟ لا أمل! وفي أي حال لست على استعداد لتمضية بقية المساء في اتصال هاتفي مع الفنادق لأعثر لك على غرفة لا سوف تبقين أنت هنا وستجدين ملاءات نظيفة على السرير، إستخدمي ما

تحتاجينه بما في ذلك ملابسي إذا استطعت أن تلبسيها وهناك فرشاة أسنان جديدة في خزانة الحمام، خذيها.»

وسألته في كلمات متعثرة:

«ولكن... الى أين تذهب؟»

كانت ابتسامة ساخرة هازئة وهو يقول:

«لا تشغلي نفسك بي في هذا الوقت المتأخر، لن أجد صعوبة في الحصول على مكان للمبيت.»

ورفع معطفه وسار الى الباب قائلاً:

«اسعدت مساء يا توني! لن أقلقك مرة ثانية.»

وخرج.

لقد ذهب الى مارشا بالطبع، الى مارشا حيث الدفء، وحيث المؤاساة. الى مارشا بضحكتها المتقطعة في صوت خفيض وفي مودة. بعطرها الفياض الساحر. الى مارشا التي لن تعذبه ولن تذكره باستمرار بما فقده، ولكنها سلوى وعزاء.رأت توني كل ذلك يحدث رأت غراي يخرج في الليلة الباردة المظلمة ليدق الجرس، جرس شقة ما في مكان ما... ورأت مارشا تفتح الباب وهي تبتسم في كبرياء...

كانت الغرفة دافئة، ولكن توني بدأت ترتعد، لقد تصرفت بحكمة عندما جعلته يمضي بعيداً مدفوعة بتشبثها واستقلالها الذي ورثته عن أبيها. لماذا شعرت اذاً بأنها وحيدة وضائعة؟

وبدأت تذرع الغرفة في قلق تحاول ألا تواجه اللحظة التي يكون عليها فيها أن تجيب على ذلك السؤال... ولكنها الاجابة التي لم تعد تستطيع أن تتجنبها... كانت اجابة محطمة جعلتها تتوقف فوراً. ووضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من أن تصرخ بها.

كانت قد وقعت في حب غراي لورنس في عمى وجنون برغم كل مشاعر التعقل، ومع ذلك ارسلته الى امرأة أخرى...

٩ ـ سقطت... الى اعلى

وأمضت توني الليل في أحد الكراسي الوثيرة منكمشة كأنها حيوان مذعور، كانت منهكة تماماً ومع ذلك نامت نوماً متقطعاً كأنها تحمل عبئاً ثقيلاً.

وعندما بدأ الضوء يزحف حول أطراف الستائر، استغرقت في نوم عميق صحت منه على صوت الهاتف بعد خمس دقائق تقريباً. وسحبت نفسها من الكرسي، وكان المتكلم هو الشرطة تسأل عن غراي.

ورفعت شعرها الأشعث الى الوراء، ونظرت الى الساعة الكهربائية فاذا بها تشير الى التاسعة تقريباً، وأجابت:

«أنني آسفة... السيد لورنس ليس موجوداً الآن، انا سكرتيرته هل تترك له رسالة؟»

«أرجو أن تطلبي اليه أن يتصل بالشرطة ويطلب الشاويش براون من فضلك.»

كان الانهاك يبدو في صوت رجل الشرطة كأنه سهر طوال الليل أيضاً.

«نعم سأفعل... أشكرك... الى اللقاء.»

وكتبت الرسالة على مفكرة الهاتف، ثم أخذت القلم مرة أخرى وأضافت:

«عدت الى الطرق البيضاء بالقطار توني.»

وأوصدت باب الشقة بعد ذلك بعشر دقائق خلفها، وهبطت الدرج، وخرجت الى الجسر، كان النسيم البارد يهب من النهر وأحست ببرودة الجو بعدما تركت الشقة المكيفة وعبرت الطريق واسرعت في السير كانت مقتنعة بأن المشي ينشط

التفكير، ووجدت نفسها عند جسر وستمنستر بعد ذلك بوقت قصير، واكتشفت انها لم تكن تفكر على الاطلاق.

ووقفت تطل على النهر الملون بلون الاردواز وعلى المارة الذين يهرولون، وقد شحبت وجوههم وخفضوا رؤوسهم خشية الرياح. كان المنظر صدى لما تحس به من كآبة... والتفتت واتجهت الى مدخل الاندرغراوند.

كانت تعتزم العودة الى الطرق البيضاء بأسرع ما تستطيع. وماذا بعد ذلك؟ لم تكن تعرف، ولكن على الأقل ستكون مع الناس الذين يهتمون بأمرها فعلاً.

واتصلت هاتفياً من محطة بادنغتون بعد أن عرفت موعد القطار، ووجدت سائق بنيامين ينتظرها في السيارة، وابتسمت ابتسامة ضئيلة وهي تركب السيارة فقد أحست عند ذاك بأنها بالفعل الآنسة أنطونيا وارين، لم يكن ذلك يعني لها شيئاً كثيراً عندئذ، ولكن المهم انها ستصبح مع أمها من جديد ومع بنيامين، وقد فرحا بعودتها وأبديا اهتماما كبيراً بسماع ما حدث منذ غادرتها.

وطمأنت بنيامين الى ثقة غراي بأن معرض كارين لاينر في الأسبوع التالي يضم أحدث المعروضات، وأخبرتها عن سرقة سيارة غراي وعن اضطراره لقضاء الليل في مكان ما بينما اضطرت هي لقضاء الليل في شقته في شيلي.

وعلقت أمها:

«ياله من رجل شهم كريم.»

ونظرت توني اليها ولكن نظرتها لم تكن تحمل أي تلميح بالسخرية وابتسم بنيامين ابتسامته الرقيقة، وأضاف:

«موعد بأن يعني بك ياعزيزتي، إنه يعرف ما تعنينه بالنسبة اليّ.»

كانت هذه العواطف تتجه مباشرة الى خطوط دفاعها فلقد جفت عيناها طوال الليل.

وتنهدت وهي تنظر عبر الردهة الكبيرة المريحة وقالت:

«انه شيء جميل أن يعود الانسان الى بيته.»

وعلق بنيامين :

«هذا هو أبدع ما سمعته منك.»

«إنه الحقيقة!»

باتت الطرق البيضاء بيتها في وقت لا يكاد يصدق وبدأت تفكر كيف تصبح جزءا من الأسرة ومن العمل بينما كان الموقف بينها وبين غراي آخذ في التأزم لأسباب عديدة.

وخرجت في تلك الأمسية الى الاسطبلات لتشاهد المهر، وهناك رأت دومينيك، كان يصفر وهو ينظف الحصان الكبير الأسود، لوسيفر وظلت ترقبه لحظة قبل أن يراها، وفكرت في أدريان من جديد، كانت لدومينيك نظراته الطليقة وشعره الأشقر الكثيف وكان من الزاوية التي تقف فيها يشبه أدريان الذي فاز بحبها الأول، والتفت وقال:

«توني ! لقد رجعت! عظيم!»

وضرب لوسيفر براحة يده على ردفه ودفعه الى الاسطبل ثم أغلق الباب وجاء ليعانقها قائلاً:

«كنت أفكر فيك في هذه اللحظة بالذات.»

«لاتقل ذلك... انك تبدو راضياً عن نفسك تماماً!»

«الحقيقة أنني كذلك، فالأمور تتحرك سريعاً، في عالم دومينيك فتش والطريق الى الفضاء الفسيح ينفتح أخيرا.»

حقا ! كيف؟»

«تذكرين أنني قلت أنني لن أفكر في أستراليا الا اذا لاح شيء في مستقبل آن... ويبدو أن هناك جديدا في هذا الشأن، شيء لم نكن نتوقع أن يحدث بهذه السرعة و آن تريد أن تراك... اذهبي الى الكوخ... فهي تعتقد أنك مهدت لها الطريق بشكل ما.»

أنا... أنا لم أفعل شيئاً!»

وهز كتفيه، وقال:

«أنا لا أعرف! في أي حال اذهبي لتسمعي منها بنفسك. وسألحق بك عند الساعة الرابعة ياعزيزتي.»

وقالت توني :

«سأفعل ذلك.»

واتخذت طريقها، ولكن ناداها ثانية، وقال:

«هل فكرت في العرض الذي اقترحته عليك يا توني؟»

ولم تحاول أن تتظاهر بعدم الفهم، وقالت:

«بصراحة، لا! لقد عزوت ذلك الى ما كنت فيه من نشوة مع شباب الفلاحين.»

وهز رأسه بقوة وقال:

«لا! على الاطلاق، لكن ذلك الاحتفال فقط أعطاني الشجاعة لأطلب منك ذلك... أعتقد أن حياتنا معاً في أستراليا ستكون حياة سعيدة.»

وواصل يقول:

«ربما أكون قد تجاوزت حدودي ياتوني عندما تقدمت لخطبة ابنة أخ بنيامين وارين ... ولكني لا أستطيع التراجع، لقد جننت بك ياحبيبتي!»

لم تكن تنتظر ذلك منه ولم تكن لديها إجابة حاضرة، ونظرت اليه وهي تفكر:

«هل من الممكن أن تبعث الحياة في حلم ذابل؟»

ووضعت يدها على ذراعه في رقة وقالت:

«أشكرك لأنك عرضت علي ذلك يادومينيك ولكن الموضوع ليس وارداً بعد»

واختفت الاشراقة من عينيه وقال:

«حسناً، ولكن لاتكلفي نفسك هذا الشعور بالاعتذار يا توني ، فالحق أنني ماكنت أحلم بأن أكون سعيد الحظ الى هذه الدرجة، ولكن دعيني أعرف لو غيرت رأيك، هذا كل ما أطمع فيه.»

والتفت الى الجياد وسارت توني تجاه الكوخ، كان الأمر يصبح يسيرا لو أنها أختارت أن تسافر مع دومينيك الى الطرف الآخر من العالم حيث لا ترى غراي ولا يراها ثانية، وابتسمت لنفسها في سخرية.

«عرضان بالزواج في يومين متتاليين! لا بد أن شيئا ما قد حدث عندما وافقت على أن تتقدم بطلب العمل الى شركة واريتز.»

ورحبت بها آن كأنها صديقة العمر، كانت أكثر شباباً وحيوية وكانت عيناها تلمعان، وقالت:

«إنني سعيدة لرؤياك يا توني! تعالي واجلسي! عندي الكثير من الأخبار لك.»

وتحدثت عن كيث وعن نفسها، وكان من اليسير أن تتابع القصة كما حكتها آن ... كيف تقابلا في المدرسة وكيف تلاطفا في البداية وكيف قاوما الاغراء لأن كيث كان متزوجاً وكيف باحا لبعضهما بالحب.

وقالت:

«لو كان هناك أطفال أو لو أن زوجة كيث كانت حقا تريده لتخلصت منه ولكن ليس لديه أولاد، وساءت حياته مع زوجته الى حد كبير . ولقد ورثت زوجته مبلغاً طائلاً وطلبت اليه أن يترك عمله كمدرس للفنون، فلديها مشروعات ضخمة وحاولت اقناعه بالذهاب الى لندن أو الخارج لتعيش الحياة التي تريدها، ولكن كيث لم يوافق ونشأ بسبب ذلك شجار دائم ولا تتصورين كيف جعلت حياته هماً ومذلة، ولكنه شخص مخلص، ولقد صبر على ذلك سنوات حتى تقابلنا ووقعنا في الحب، ولم يكن يستطيع أن يتركها حتى ذلك اليوم رأيته في هناك، واخطأني... فظن أنك أنا...تذكرين ذلك؟ كانت تلك نقطة التحول فلقد اقتنع أن حالنا لن يستمر على ما كان عليه وأن الناس سوف يعرفون وتنتشر الشائعات في المدرسة.»

وحاولت توني أن توضح:

«ولكن...»

وقاطعتها آن تقول:

«لم يكن يظن أنك تفشين سراً، ولكن ذلك فتح عينيه على ما يمكن أن يحدث، وجعله يتخذ القرار بأن يضع حداً للموضوع، ووصل الأمر الى عراك كبير عندما أخبر زوجته، ولكنها تركته وذهبت الى أصدقاء لها في لندن وسوف يحصل على

حريته في أقرب فرصة ثم نتزوج، ليس عندك فكرة يا توني ، إنني أحس كأن حملاً كبيراً انزاح عن ظهري.»

وبدت الدموع في مقلتيها.

وقالت توني في اخلاص:

«انني سعيدة جداً لك، وكنت أظن أن هناك شيئاً يجعلك تبدين مكتئبة بعض الشيء.»

وعلقت آن:

«كان أمراً صعباً ولكنني أعتقد أن أسوأ ما هناك أنتهى بالنسبة الى كلينا، قد يلام الرجل دائما عندما تكون هناك امرأة أخرى ولكن الناس لا يأخذون في اعتبارهم أن المرأة أحياناً تكون جحيما لايطاق لرجلها. كما حدث مع غراي!»

لم تستطيع توني أن تفهم ماتعنيه وظلت لبرهة تحاول أن تستجمع خيط الحديث، ثم قالت:

«كنت أظن أنه زواج مثالي ولذلك لا يستطيع غراي أن ينسى ميدج.»

وسألتها آن في سخرية:

«هل قال لك ذلك بنفسه؟»

«لا! لم يقل ذلك، العم بنيامين هو الذي قال أعتقد أنه ذكر ان غراي شعر بخسارة فادحة جعلته يشعر بالمرارة ويتحول الى انسان صعب المراس، وهذا يفسر سلوكه في معاملتي.»

وفكرت آن ملياً، ثم قالت:

«كنت أعرف ميدج جيدا، كبرنا معا، ولم تكن تنسى أبدا أنها أميرة صغيرة، كانت كل ما بقى لبنيامين من أسرته ودللها وأعطاها كل ما طلبته بل أفسدها بتدليله ولم يرها على حقيقتها، كانت أنانية تماماً وكنت أظن أنها ستتغير عندما تزوجت غراي ولكنها ظلت تزهو أمامي بأنها تلوي غراي كما تلوي اصبعها الصغير رغم أنه كان يحبها ويعطيها كل ما تطلب وكانت تعامله كما تعامل بنيامين.»

وابتسمت آن في كآبة وقالت:

«ولكنني أعتقد أن غراي كان نمطاً مختلفاً تماماً ولأنني أعرف ميدج فقد كان بوسعي أن أتخيل ما يدور... ولقد حدثتني ذات مرة ، من باب المباهاة أن لها طريقتها في أن تجعله يفعل ما تريد، كان ذلك أقذر ما يمكن أن تصنعه امرأة برجل.»

وهمست توني:

«هل تعنين أنها كانت...»

ونظرت اليها آن وقالت:

«كانت تحرمه من عواطفها... لم تكن ميدج تهتم بالآخرين على الاطلاق بل كانت تستغلهم، استغلت دومينيك بهذه الطريقة أحياناً ونجحت في أن تجعل غراي يضيق به.»

وعلقت توني:

«نعم لاحظت ذلك...»

كان كل شيء يتضح الآن، وواصلت توني:

«ولم يكن بنيامين يعرف شيئاً عما يدور.»

وهزت آن رأسها وقالت:

«كانت ميدج في عينيه الكمال ذاته وكانت تحرص على أن تبقى كذلك، ولم يكن غراي يريد أن يعرف الرجل العجوز الحقيقة، وتحول بمضي الوقت الى رجل أكثر صمتا وكآبة بينما صارت ميدج أكثر طيشاً واهتماماً بالمظاهر كان أحد أصدقائها سائق سيارة سباق، وكان ذلك عندما اشترت السيارة التي قتلتها اذ ارادت سيارة فخمة قوية تلفت النظر وأخيرا وجدت الشيء الذي لم تستطع أن تسيطر عليه.»

والتزمت توني بالصمت، ودار عقلها عاجزا عن أن يتكيف للموقف الذي انقلب فجأة رأساً على عقب، ونظرت اليها آن وقد انتابها القلق وقالت:

«سألوم نفسي لأنني تكلمت؛ كنت أشعر أنك ينبغي أن تعرفي. وربما يهمك أن

تعرفي...»

وقالت توني في بطء:

«إنه يهمني تماماً... ولكن سامحيني يا آن لا أريد أن نتحدث عن ذلك الآن، هل أكون قليلة الذوق اذا طلبت منك ألا أبقى أكثر من ذلك؟»

ونظرت اليها آن نظرة قلقة، وقالت:

«بالطبع لا... ولكنك ستأتين مرة ثانية.»

ووعدتها توني بالزيارة، وودعتها، وسارت عبر الحديقة الجرداء، وبدلا من أن تتجه الى البيت عبرت طريق السيارات ووجدت دربا غير ممهد تنتشر عليه الأحجار والطين، وواصلت السير وهي لاتلاحظ ما يحيط بها، وأستولت عليها فكرة واحدة، لم يكن غراي يعيش عيشة خيال جامح، ولم يكن يحاول أن يتخيل أنها ميدج ، ولم يكن يحب ميدج بل كان تعيساً للغاية معها، لو كانت آن صادقة فيما قالت... وامتلأ قلبها فجأة بالعطف عليه، لابد أن ظهورها خلق له موقفاً لا يحتمل، كان يحارب شبحا يطارده من كل الجهات، وربما طلب الزواج منها ليرتاح من الشبح وأحست بأنها بدأت تفهم ولكن قليلاً . وازداد حبها له عمقاً الآن بعاطفة تملأ كل كيانها وطفت في النهاية على هيئة بكاء، وأخذت تتعثر وهي تسير باكية بؤس غراي وبؤسها، والموقف الذي يوجدان فيه.

وأخذت تسير وتسير على غير هدى، وكانت هناك فكرة واحدة تسيطر على عقلها، كانت تحب غراي وعلى استعداد لأن تعمل أي شيء من أجله ولكنها بسبب وجه الشبه بينها وبين امرأة أخرى كانت عاجزة عن توفر له الا التعاسة والقلق.

كانت تدرك بطريقة غامضة أن المطر يتساقط ولكن الطقس كان يتناسب مع حالتها النفسية... المزارع الجرداء... والشجيرات الخالية من الأوراق والشتاء الموحش.

وجاءها الحل من حيث لا تدري وأوقفها ساكنة في خطوها، لو أنها تزوجت دومينيك وذهبت معه الى استراليا فان غراي سيتخلص الى الأبد من

متاعبها ولن تكون خدعت دومينيك فهي على استعداد لتعطيه كل ما ينشده وربما تعلمت أن تحبه بمضي الوقت. ستفتقدها أمها بالطبع ولكنها لن تقف في طريقها فضلاً عن أنها سعيدة بالحياة في الطرق البيضاء تهتم بالبيت وبنيامين واذا انتقل المصنع الى هنا فستتاح لها الفرصة لاشباع مواهبها في التنظيم، وأما عن بنيامين فسيحزن بعض الشيء، ولكنه تعلم الحكمة من حياته الطويلة ويعرف أنه من المحال أن يحتفظ الانسان الى الأبد بمن يحب... نعم! هكذا فكرت توني وقد خف توترها بعدما اتخذت القرار الذي بدا أنه المخرج الوحيد وكانت على استعداد لأن تمضي به الى النهاية وكانت تبحث عن دومينيك الآن لتخبره.

والتفتت وبدأت تجري لتنفذ ذلك على الفور، وأخذت تجري وتجري وهي تلهث بعض الشيء، وقد خفضت رأسها حتى لاتتعرض للمطر المنهمر وهي تمسك بياقة معطفها حول رقبتها.

وعندما تذكرت ما حدث بعد ذلك بعدة أيام عرفت أنه كان من غير الممكن أن تتفادى السقوط في منطقة حجرية غير مستوية وتنطرح أرضاً على معدتها في منطقة طينية ولكن سو الحظ وحده هو الذي جعلها تصطدم ببعض الجذور القوية البارزة واشتبك مفصل قدمها ولم تستطع أن تخلص نفسها.

لم تصدق في أول الأمر أنها أصيبت بالفعل وكانت تعتقد أنها خلال دقيقة أو دقيقتين سوف تجد الحركة الصحيحة التي تخلص قدمها وتسمح لها بالحركة، وحاولت أن تحرك قدمها بحذر ولكنها بقيت محشورة.

لم يكن ما حدث شيئاً متوقعاً اذ كان لا بد أن تعود الى الطرق البيضاء لتقابل دومينيك ولتخبره بما قررته وصارعت لتحرك جسمها مستندة على مرفقها، ولكنها لم تستطع أن تتحرك الا حركة بسيطة الى اليسار وعندما حاولت أن تتدحرج في الاتجاه المضاد وجدت أن جسدها كان مقيدا تماما بساقها اليمنى، وأخيرا دعت بيديها الى أعلى وذراعاها منثنيان وتمكنت بكل قوتها أن تتزحزح على الأرض الى الأمام كما تفعل الحية وخيل اليها انها كسرت قدمها.

وسقطت على الأرض تبكي في صمت وغضب يائس بسبب سو الموقف.

وتصلب وجهها والتصقت به خطوط من الطين بدت كأنها أجزاء من شريط لاصق، وأحست بطعم التراب المبتل في فمها وحاولت أن تنظفه ولكن يديها كانتا ملطختين بالطين كذلك، كان المطر ينهمر بلا رحمة وتشربت ملابسها بالماء وانساب ماء المطر على عنقها.

ولم تكن تعرف سوى أنها في العراء البارد بين الحقول الجرداء، الرطبة وأنها وقعت في شرك حقيقي.

ولم يكن للزمن معنى فقد رقدت هناك يائسة تماما تحاول أن تخلص نفسها بين لحظة وأخرى ولكن جهدها كان يتضاءل المرة تلو الأخرى وأخيرا كفت عن المحاولة، وأخذت تصرخ ولم يكن ثمة من مجيب سوى حبات المطر تهطل بطريقة لاتنقطع، ترى هل أحس سكان الطرق البيضاء بغيابها؟ متى اخذوا يحسون بذلك؟ وحتى لو أحسوا فهل يعرفون أين يبحثون عنها؟ وارتعدت في عصبية، كان من الممكن أن تموت من التعرض للبرد! وقهقهت بطريقة هستيرية.

كان قد أغمى عليها لفترة فقد وجدت أن الظلام بدأ يرخي سدوله عندما فتحت عينيها، ورفعت رأسها في وهن، ورأت ضوءاً خافتا على البعد، ربما كان ضوء كوخ آن ، وارتسمت أمام عينيها صورة الغرفة المريحة والنار والدفء، وبدأت تبكي من جديد بدون أن يسمع لها صوت والدموع تسيل على وجنتيها لتختلط بحبات المطر...

ورأت ضوءاً آخر يتحرك ليقترب منها، وسمعت صوتا ينادي:

«توني! توني!»

وشهقت نفسا عميقا، وصرخت في صوت متهدج.

«هنا! أنا هنا! أدركوني! أدركوني!»

كان الذي أجابها صوت غراي، جاء كمعجزة، غراي الذي ركع الى جوارها، ومس وجنتها الباردة المبتلة وقال:

«اطمئني لا بأس.. ياتوني! انني معك...»

وأخذ ضوء المصباح يتحرك فوقها، وأحست بشيء يقطع إرباً إرباً ذلك الشيء

الذي كان يمسك بمفصل قدمها، وأحست بالخلاص أخيرا فتدحرجت على ظهرها ورقدت عاجزة عن الكلام، وحملتها الذراعان القويتان تجاه الضوء الخافت البعيد.

«ما الذي جعلك تفعلين هذا يا عزيزتي توني؟ تسيرين في الحقول أثناء المطر وحدك؟»

شيء ما كان يمسك بمفصل قدمها، وأحست بالخلاص أخيرا فتدحرجت على ظهرها ورقدت عاجزة عن الكلام، وحملتها الذراعان القويتان تجاه الضوء الخافت البعيد.

«ما الذي جعلك تفعلين هذا يا عزيزتي توني؟ تسيرين في الحقول أثناء المطر وحدك؟»

وأخذت السيدة وارين تروح وتجيء في الغرفة تفرد الوسائد وتعدل حرارة المدفأة وقالت:

«قلقت أنا وبنيامين عليك، ظننا في أول الأمر أنك تزورين آن وعندما ذهبت الى الكوخ وقيل لي أنك انصرفت منذ ساعة لم أعرف كيف أتصرف.»

وأراحت توني رأسها الى الخلف، وابتسمت، فبعد أن أخذت حماماً ساخناً وكوباً من الحليب الساخن أحست بالراحة والاسترخاء... كان لبشرتها وهج دافيء، وانسدل شعرها الذي تخلص من الطين على الوسادة وجف في ملمس الساتان الخمري المتلألئ، وكان شيئاً طيباً أن تحس بأنها انسانة من جديد كتبت لها الحياة ولن تموت.

وأخذت تشرح القصة من جديد للمرة التي لا تعرف عددها:

«كنت راجعة يا ماما ولسوء حظي حشرت قدمي في ذلك الجذر...»

ولم تذكر أنها كانت تجري... تجري بوحشية وبغير اكتراث لتعثر على دومينيك ولتخبره أنها تقبل به زوجاً ولتقطع الى الأبد تلك الرابطة التي وجدت أنها وغراي ترتبطان بها في مصير مؤسف.

وقالت أمها في لهجة فيها شيء من التأنيب:

«مازلت أعتقد أنك أخطأت إنني ذاهبة لأعد لك العشاء، وسيكون عليك أن

تأكليه كله ثم تنامي نوماً هادئاً وإذا ارتفعت درجة حرارتك سنطلب الطبيب في الصباح ليفحصك.»

واتجهت الى الباب تقول:

«سوف ينهض بنيامين ويراك، كان قلقاً عليك.»

واضطجعت توني وأغلقت عينيها وسمعت طرقا على الباب بينما كادت تستغرق في النوم.

وابتسمت توقعا لدخول بنيامين وأسدلت جفنيها وقالت:

«أدخل!»

وفتحت عينيها ونطقت:

«غراي! كنت أظن أنه العم بنيامين.»

وعلق قائلاً:

«سمح لي أن أنوب عنه... هل لديك اعتراض؟»

وأحست بالخجل وقالت:

«لا... بالطبع... لا!»

وجلس الى جانب فراشها يقول:

«كيف حالك؟ هل أصابك أي ضرر؟»

كانت لهجته ودودة وبدا أنه نسي كيف افترقا في الليلة السابقة.

وأجابت:

«إنني بخير... ولا يوجد ضرر حقيقي... مجرد احتكاك وكدمة خفيفة في مفصل القدم، وقامت أمي بعمل الاسعافات اللازمة، لا بد أن أقدم لك الشكر لانتقاذي من تلك المقبرة الغارقة، كيف عدت؟ وكيف عرفت مكاني؟»

واستند الى كرسيه وقال:

«الاجابة على السؤال الأول ـ رجعت في سيارتي ويرجع الفضل الى الشرطة في العثور على مكانها شمال وانفورد في السادسة والنصف من صباح اليوم وعدت بأسرع ما أستطيع لأنني وددت أن أتحدث اليك. وبالنسبة الى السؤال الثاني ـ

عندما لم أجدك عند وصولي بحثت عنك في كرخ آن وعرفت الوقت الذي
تركت فيه الكرخ وحسناً... لابد أن أعترف أنني أضعت وقتاً لا بأس به في
الوصول الى مكانك، وكانت أمك وبنيامين يبحثان أيضا»

ونظر اليها نظرة حادة وقال:

«لاتحاولي مرة أخرى أن تخرجي وحدك كما فعلت، أيتها الشابة الصغيرة»

وقالت في وهن:

«آسفة... سببت لكم المتاعب»

«فعلا...»

وتبع ذلك فترة صمت طويلة قال بعدها:

«تحدثت الى آن .»

وعلقت ترني :

«أوه !»

«وتحدثت اليّ... وكانت مضطربة قليلا... وظننت أنها ربما كانت غير حكيمة
عندما ناقشت أمورا تمت الى حياتي الشخصية معك، لكنني طمأنتها.»

وقالت للمرة الثانية:

«أوه! حسنا»

وتركه هدوءه فجأة وضرب ذراع الكرسي براحة يده وقال في حدة:

«لماذا خرجت تضربين في الحقول بتلك السرعة بعد أن سمعت حديث آن؟»

وبللت شفتيها، وقالت:

«كان عليّ أن أفكر..»

وخفضت من صوتها، وقالت:

«فهمت كل شيء على عكس ما كان الواقع...»

واستجمعت شجاعتها ، وقالت:

«أحبني بنيامين وأرادني لوجه الشبه بيني وبين ميدج ، وأنت أبديت كرهك
ومقاومتك لي وكنت أظن أن ذلك راجع الى أنني كنت كالحلوى المرة التي تذكرك

بكل مافقدته، وأنك في كل مرة تراني كنت تذكر سعادتك معها، وظننت أنك كنت
تغازلني لتغمض عينيك وتتخيل أنها بين ذراعيك...وكنت آمل أنك بمرور الوقت
تتقبل خسارتك كما يفعل الناس وربما صرنا أصدقاء بعد ذلك وعملنا سوياً.»

وأومأ في بطء قائلا:

«ثم اكتشفت اليوم في فترة ما بعد الظهيرة أن ميدج لم تكن الملاك الذي رسم
بنيامين صورته لك وجعلك تصدقينه؟ الحقيقة هي العكس تماما...»

وقالت في بساطة:

«نعم... ياغراي... إنني آسفة... لم أكن أفهم... ولكنني أفهم الآن قليلا، انني
أفهم لماذا يعتبر وجودي قريبا منك شيئا مؤلما لك وشيئا لا يحتمل، وعندما كنت
أفكر أن قربي منك يذكرك بالحب والسعادة كان ذلك أمرا صعبا بما فيه الكفاية
ولكنه كان محتملاً، أما اذا كان كل ما أذكرك به هو الاحباط واليوس، فلا أمل أن
يتواجد كلانا معا، وهناك بين الحقول توصلت الى قرار، قررت أن أحل المشكلة
بأن أذهب الى مكان بعيد.»

«سوف ترحلين؟ والى أين؟»

وحاولت أن تجعل وجهها يبدو هادئاً وعادياً بمجهود كبير وقالت:

«الى الطرف الآخر من العالم... دومينيك ذاهب الى أستراليا وطلب الي أن
أتزوجه وأن أذهب معه الى هناك.»

«هل تحبينه؟»

«انا على ثقة من أنني سأحبه...»

«ولماذا اذاً تعتقدين أنني طلبت الزواج منك؟»

واتسعت عيناها، وقالت:

«اعتقد...»

ثم توقفت وقد احمرت خجلاً.

وقال لها:

«أوضحي !»

«اعتقدت أنك كنت تبحث عن مبرر يجيز لنا أن نبيت معاً في الشقة بدون أن تنكث بوعدك لبنيامين.»

وقال في مرارة:

«نعم! أظن أنني استحق ذلك! هات ما عندك! وماذا أيضـا سول لك عقلك الصغير عني؟»

«ظننت أنك خرجت لتقضي الليل مع مارشا فقد بدا بينكما ود كبير.»

«بالفعل بيننا هذا الود، فمارشا امرأة عظيمة، ولكن هناك رجل واحد يستطيع أن يقضي الليل مع مارشا، ذلك الرجل هو زوجها بيترو ولقد انتهى لتوه من تصوير فيلم في روما. انه صديق كبير لي وسوف تحبينه...لا... امضيت الليل في النادي ألعن نفسي لأنني كشفت عما في نفسي وطلبت أن تتزوجيني.»

وقالت في صوت خافت:

«لم يحدث خطأ كبير.»

وقال في خشونة:

«بالطبع كان في ذلك خطأ كبير.. كنت غير موفق في الليلة الماضية بدرجة لا تصدق ولا عجب في أنك رددتني بخفي حنين.»

«ولكنك لم تكن جاداً.»

كان لايزال ينظر اليها وقال:

«لم أكن جاداً في حياتي كما كنت بالأمس ولكن التوقيت لم يكن مناسباً.»

«اذن لماذا خرجت بتلك الطريقة؟»

وابتسم ابتسامة ضئيلة وقال:

«لماذا؟ ألا تحسين بما تثيرينه من اغراء أيتها الشابة؟ كنت أود أن أبقى وأترافع عن قضيتي ولكنني بشر يا حبيبتي وكنا وحدنا في شقتي وكان كل ما أستطيع هو أن أتصرف بأسرع ما يمكن... وهذا ما فعلته...»

كانت تجلس في السرير المغطى بالملاءات البيضاء، وقد حبست أنفاسها في ترقب وانتظار، وقال غراي:

«انني على ثقة من أنني لست شخصاً يحب مثل دومينيك ولكن هل بوسعك أن تصدقيني؟ لأنني أحبك وأريدك معي ولا أستطيع أن أبقى بدونك؟»

وأطلقت أنفاسها في تنهيدة طويلة وترقرقت الدموع في عينيها وقالت في صوت أبح:

«لا أستطيع أن أحاول ذلك... ظللت أقاوم من أجل ألا أحبك منذ أول مرة التقينا فيها.»

وأخذ وجهها بين يديه وصار ينظر بعمق في عينيها وقال:

«عيناك تختلفان عن عينيها لأن عينيك فيهما الصدق والشفقة والكرم، ولقد عرفت منذ البداية أنك لست مثلها ولكنني كنت أحاول ألا أصدق نفسي فلقد تعقدت منها بشكل كبير عبر السنين.»

وعانقها وقال:

«نجحت في أن تحلي هذه العقدة في أسابيع يا حبيبتي...»

وعرفت بالتأكيد عندئذ أنه ليس هناك ما تخشاه من الماضي وقد يتحدث اليها عنه في يوم من الأيام اذا ما رغب في ذلك ولكنها لن تستفسر أو تسأل بحال من الأحوال.

وعاد الى كرسيه من جديد وأخرج من أحد جيوبه الخارجية صندوقاً صغيراً من الجلد وقال في ابتسامة:

«لنطبق لمرة واحدة الأسلوب الصحيح والرسميات، انتهزت فرصة ذهابي الى بوندستريت لأحضر هذا قبل أن أتصرف.»

وصمت عن قصد، وأضاف:

«كدليل على الاخلاص والصدق.»

وفتح غطاء الصندوق ليكشف عن خاتم يتكون من ماسة واحدة شكلت بمهارة جعلها تتلألأ وتشع نارها أمام عينيها المنبهرتين.

وقال غراي:

«انها ماسة حقيقة، انني لا أحب التقليد.»

وفقدت ترني قدرتها على الكلام، وأخذت تحدق بدون أن تنطق بشيء... الى الخاتم الجميل بينما أخذ غراي يضعه في أصبعها. كان الخاتم مناسباً تماماً للأصبع، وقال:

«هل يعجبك؟ مناسب؟»

«نعم!»

ولم تستطع أن تحبس الدموع لفترة أطول فقد كان يوماً منهكاً.

وأخذ غراي يمسح عينيها حتى عادت الابتسامة اليها ثم قبل اصبعها وعليه خاتمه ورفع رأسه وعيناه ترقصان في خبث وقال متأملاً:

«انه لكرم كبير... ها أنت أخيراً هنا حيث حلمت بالحياة معك... وبما أنك تبدين في حالة صحية واهنة فانني أكتفي بأن أقبل يدك ولكن انتظري ياحبيبتي... أرجو أن تنتظري فانني أعرف فندقا صغيراً يطل على بحيرة وزهور الربيع في المروج حوله في كل مكان.»

غمرتها البهجة والفرح لتزيل عنها الشعور بالتعب ولتملؤها بالحياة والطاقة وجلست وقد مدت كلتا يديها نحوه، كانت تريد أن تعطي وتعطي وألا تحبس شيئا تدخره للسنوات المقبلة.

وتمتمت وهي تعانقه:

«شملتنا عناية السماء، أهو أول يوم تزهر فيه أزهار الربيع حول ذلك المكان؟»